وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تونس الإفتراضية

فنّ المذكّرات في الأدب العربي الحديث

فوزي الزمرلي

تحذير!

تعود ملكية هذا الدرس الرّقمي إلى جامعة تونس الافتراضية دون سواها.
لذا فإنّه يمنع منعا بتّا نسخه لغايات تجارية. و يرخّص في تحميله أو نسخه للاستعمال الشّخصي فقط .

التمهيـد:

تعلّق موضوع هذه الوحدة بضبط علاقات المذكّرات بجنسها الأدبيّ واستخلاص شعريّتها ورصد قيمتها، بالاستناد إلى "مذكّرات الشابي" التي لم يحقّق صاحبها مقصديّته الأجناسيّة، ومذكّرات بيرم التونسي التي اتصلت بجنسها الأدبيّ، رغم أنّ صاحبها لم يعلن في قسم منها عن مقصديّة أجناسيّة، و"مذكّرات طه حسين" التي حقّق فيها المؤلّف مقصديّته الأجناسيّة، رغم أنّ من الناشرين مَن أدرجها في طبقة جنس أدبيّ آخر.

وهي وحدة في النقد الحديث، متّصلة بنظريّة الأدب2 التي تُدرّس في السداسي السادس من الإجازة الأساسيّة بشعبة اللّغة والآداب العربيّة.

الأهداف العامّة للوحدة

تهدف هذه الوحدة إلى تحقيق ثلاثة أهداف رئيسيّة:

1 ـ إطلاع الطلبة على إشكاليّات تصنيف الآثار السرديّة وتدريبهم على استعمال الأدوات الكفيلة بتحديد علاقاتها بأجناسها الأدبيّة والوقوف على شعريّتها.

2 ـ مساعدة الطلبة على تحليل نصوص سرديّة، ذات صلات متشعّبة بجنس المذكّرات لاستخلاص خصائصها الأجناسيّة والإحاطة بدلالاتها وضبط مقاصد أصحابها، بالاستناد إلى آثار شهيرة ألّفها بعض أعلام الأدب العربيّ الحديث.

3 ـ دفع الطلبة إلى اختبار مدى تمثّلهم لمادّة هذه الوحدة وقدرتهم على مقاربة المذكّرات مقاربة شاملة.

محتوى الوحدة

تنهض هذه الوحدة على أربعة أقسام موزّعة على 13 درسا عامّا. وتتّصل بتلك الدروس العامّة تمارين وشروح ومواضيع إنشائيّة لدعم التقويم الذاتيّ.

روزنامـة الـدّروس

القسم	رقم الدرس	عنوان الدرس	التوقيت	
الأوّل:	الدرس1	المذكرات ومسألة الأجناس	ساعة	ساعتان

إشكاليات		الأدبيّة	درس عام	أ. م
التحديد الأجناسيّ	الدرس2	المذكرات ومسألة التصنيف	//	//
الثاني: العلاقة النصيّة المصاحبة	الدرس3	عتبات "مذكّرات الشابي"	//	//
	الدرس4	عتبات مذكّرات "بيرم التونسي"	//	//
	الدرس5	عتبات مذكّرات "طه حسين"	//	//
الثالث: العلاقة النصيّة الجامعة	الدرس6	صلات مذكّرات الشابي بجنسها الأدبيّ	//	//
	الدرس7	صلات مذكّرات بيرم التونسي بجنسها الأدبي	//	//
	الدرس8	مذكّرات المنفى" و"مذكّراتي" وفنّ المذكّرات	//	//
	الدرس9	صلات مذكّرات طه حسين بجنسها الأدبي	//	//
الرابع: مقاصد كتّاب المذكّرات	الدرس10	المقصد الأوّل: تقديم شهادة (مذكّرات الشابي ودافع الشهادة).	//	//
	الدرس11	مذكّرات بيرم التونسي ودافع الشهادة	//	//
	الدرس12	مذكّرات طه حسين ودافع الشهادة	//	//
	الدرس13	المقصد الثاني: التبرير (مذكّرات الشابي وبيرم وطه حسين)	//	//

المقاربة البيداغوجيّـة

قام المنهج المعتمد في صياغة هذه الوحدة على الأركان التالية:

1 ـ التمهيد:

إبراز أهميّة القضايا التي تعلّقت بها أقسام هذه الوحدة.

2 ـ المحتوى الرئيسي:

تحديد علاقات التعالي النصّي التي ربطت متون المدوّنة المعتمدة بغيرهـا من النصوص، وتحليل تلك العلاقات للوقوف على إشكاليّات تصنيف المذكّرات وتقويم شعريّتهـا واستخلاص دلالاتها.

3 ـ التقويم الذاتي:

مساعدة الطلبة على الإفادة الدقيقة من كلّ الدروس، وتدريبهم على مقاربة المذكّرات مقاربة شعريّة لتبيّن خصائصها الفنيّة واستخلاص دلالاتها.

العمـل والروزنامة البيداغوجيّة

ـ تتوزّع مواد هذه الوحدة على سداسيّ متكوّن من 13 أسبوع:

ـ يكتسب الطلبة هذه الوحدة في32 ساعة و30 دقيقة .

ـ 13 ساعة دروس عامّة.

ـ 19 ساعة و30 دقيقة أشغال موجّهة.

ـ ينبغي على الطلبة البدء بقراءة نصوص المذكّرات المتعلّقة بالدروس العامّة والملاحق المقتطفة من مراجع رئيسيّة.

ـ يحسن الاطّلاع على محتويات الدروس، وفق الترتيب الذي وردت عليه، والاستنارة بالمراجع المذكورة للتعمّق في المسائل الدقيقة.

ـ نقترح على الطلبة إنجاز التقويم الذاتيّ المتعلّق بكلّ درس من دروس الوحدة، قبل قراءة مشاريع الإصلاح المفصّل والإصلاح العام الملحقة بمواد التقويم الذاتيّ.

ملخّص الـدّروس وأهـدافها

القسم الأوّل: إشكاليّات التحديد الأجناسيّ.

الدرس الأوّل: المذكّرات ومسألة الأجناس الأدبيّة.

أشار هذا الدرس إلى الأسباب التي حالت دون تعريف المذكّرات تعريفا جامعا مانعا وضبط حدودهـا بصورة صارمة، وأبرز ضرورة الاعتناء بخصائصهـا الأجناسيّة للتمكّن من قراءتها في ضوء جنسها الأدبيّ. ومن ثمّ وقف الدرس على قيمة المواثيق الأجناسيّة المتّصلة بالمتون السرديّة ودلّ على أهميّة المدوّنة المنتمية إلى جنس المذكّرات.

- - - - -

الدرس الثاني: المذكّرات ومسألة التصنيف.

أبرز هذا الدرس إشكاليّات التصنيف الأجناسيّ، ومهّد السبيل إلى رصد الأركان الرئيسيّة التي ينبغي الاستناد إليها لتحديد النصوص التي تنتمي إلى جنس المذكّرات وفحص شعريتهـا.

القسم الثاني: العلاقة النصيّة المصاحبة.

الدرس الثالث: عتبات مذكّرات الشابي.

حدّد هذا الدرس السبيل إلى فحص عتبات "مذكّرات الشابي" والإفادة منها لضبط علاقة من علاقات تعاليها النصيّ. وقد وقع التمهيد إلى هذا القسم الثاني من أقسام المسألة المدروسة بالإشارة إلى مقاصد الباحثين الذين اعتنوا بفروع المصاحبات النصيّة.

الدرس الرابع: عتبات مذكّرات بيرم التونسي.

أثبت هذا الدرس ضرورة إدراج مذكّرات بيرم التونسي في سياقها التاريخيّ للكشف عن عوامل نشأتها وتبرير ميل مؤلّفها إلى نشرها في فترات مخصوصة والوقوف على أسباب اختلاف أجزائها محتوى سرديّا وشكلا فنّيـا.

ومن هنا اتّضح أنّ تلك العلاقة النصيّة المصاحبة تمثّل منفذا إلى خطاب المذكّرات وتهدي إلى علاقة أساسيّة من علاقات تعاليها النصّيّ.

الدرس الخامس: عتبات مذكّرات طه حسين.

أبرز القسم الأوّل من هذا الدرس أنّ الاستناد إلى النصوص المصاحبة الحافّة بمتن "الأيّام" ومتن "مذكّرات طه حسين" يساعد على التفطّن إلى أوجه الاختلاف بينهما.

أمّا القسم الثاني من الدرس فقد أشار إلى اضطلاع سيرة طه حسين بوظيفة نصّيّة مصاحبة وإثبات أنّ اعتمادها يمهّد السبيل إلى تحديد عوامل نشأة "مذكّرات طه حسين" وفهم جوهر خطابها.

القسم الثالث: العلاقة النصيّة الجامعة.

الدرس السادس: صلات مذكّرات الشابي بجنسها الأدبيّ .

وقف هذا الدرس على القرائن الناطقة بأنّ الخصائص الأجناسيّة المميّزة لليوميّات قد هيمنت على مذكّرات الشابي هيمنة دالّة على أنّ مؤلّفها لم يحقّق المقصديّة الأجناسيّة التي أعلن عنها في العنوان.

وقد وقع التمهيد لهذا القسم الثالث من أقسام المسألة بتحديد أوجه الاتّفاق وأوجه الاختلاف بين السيرة الذاتيّة والمذكّرات واليوميّات لتمكين الطلبة من إدراك كيفيّة ضبط علاقات نصوص الحكي الحقيقيّ بأجناسها الأدبيّة.

الدرس السابع: صلات مذكّرات بيرم بجنسها الأدبيّ: مذكّرات مرسيليا وفنّ المذكّرات.

حلّل هذا الدرس مواضيع مذكّرات مرسيليا وخطّة خطابها في ضوء عوامل نشأتها وتقبّلها لإثبات انتمائها إلى جنسها الأدبيّ والدلالة على أهمّية مقاصد مؤلّفها.

الدرس الثامن: "مذكّرات المنفى" و"مذكّراتي" وفنّ المذكّرات.

أبرز هذا الدرس أنّ اختلاف حلقات "مذكّرات المنفى" عن حلقات "مذكّراتي" ناجم عن اختلاف سياقات نشأتها وتباين صور المتلقّي التي استحضرها المؤلّف. كما وقف هذا الدرس على الجوانب التي تثبت اتّسام بعض الحلقات الأولى بسمات اليوميّات الخاصّة

وعلى الجوانب التي تثبت اتّسام الحلقات الأخيرة بسمات الترجمة الذاتيّـة ليؤكّد أنّ كلّ ذلك لا يقطع صلات تلك النصوص بجنس المذكّرات.

الدرس التاسع: صلات "مذكّرات طه حسين" بجنسها الأدبي.

بيّن هذا الدرس أنّ قراءة متن "مذكّرات طه حسين" في ضوء ميثاقها الأجناسيّ تكشف عن أنّ العناصر التي تتميّز بها المذكّرات هي التي هيمنت على العناصر المتّصلة بأجناس أدبيّة أخرى. ومن هنا تجلّت قيمة ذلك الكتاب وجاز لنا اعتباره عتبة رئيسيّة منفتحة على أعمال طه حسين النقديّة والإبداعيّـة.

القسم الرابع: مقاصد كتّاب المذكّرات.

الدرس العاشر: المقصد الأوّل: تقديم شهادة.

أ ـ مذكّرات الشابي ودافع الشهادة.

تعرّض التمهيد إلى علاقة مذكّرات الأدباء بآثارهم الإبداعيّة والنقديّة، وبيّن أنّ قراءة متون المذكّرات في ضوء مقاصد مؤلّفيها تهدي إلى صميم خطابها.

ولمّا كان دافع الشهادة من أهمّ العوامل المتسبّبة في نشأة المذكّرات فإنّ هذا الدرس العاشر رصد تأثير ذلك الدافع في "مذكّرات الشابي" وقوّم جانبها التوثيقيّ.

الدرس الحادي عشر: مذكّرات بيرم ودافع الشهادة.

رصد هذا الدرس أوجه الاختلاف بين الشهادة التي شفّت عنها كلّ سلسلة من سلاسل مذكّرات بيرم وبرّر اتّسامها بالسمات الذاتيّة التي قلّصت بعدها الوثائقيّ. وانتهى الدرس، إثر ذلك، إلاّ أنّ جميع مذكّرات بيرم تتعاضد على إبراز العوامل التي نحتت شخصيّته وحدّدت مواقفه وشكّلت خطابه.

الدرس الثاني عشر: مذكّرات طه حسين ودافع الشهادة.

تعلّق هذا الدرس بتحليل ألوان الشهادة التي قدّمتها مذكّرات طه حسين وتقويمها لتحديد مظاهر اختلافها عن الشهادة التي تجلّت في كتاب "الأيّام"، وإبراز دلالتها على أهواء صاحبها وعقليّته ومكوّنـات شخصيّته.

الدرس الثالث عشر: المقصد الثاني: التبرير.

أبرز هذا الدرس أنّ خوض الناس في مواقف الأدباء الأعلام وسلوكهم هو الذي جعل مذكّراتهم تحتفل بدافع التبرير احتفالا لوّن خطابها بلون ذاتيّ مترجم عن شخصيّاتهم.

كما رصد الدرس مظاهر ذلك الدافع وفحص وجوه اختلافها بإدراج المذكّرات في سياق نشأتها ورسم ملامح المتقبّل الرئيسيّ الذي أثّر في خطابها.

أمّا القسم الأخير من هذا الدرس فقد اهتمّ باستخلاص علاقات التعالي النصّي التي انفتحت عليها هذه المسألة، ولفت الانتباه إلى دورها في تحديد درجة شعريّة المذكّرات التي شكّلت المدوّنة التي وقع اعتمادهـا.

القسم الأوّل:

إشكاليّات التحديد الأجناسيّ

الدرس الأوّل:

المذكّرات ومسألة الأجناس الأدبيّة

لئن احتفل التراث العربيّ الشفويّ والمدوّن بآثار سرديّة منتمية إلى أجناس أدبيّة مختلفة (السيرة الشعبيّة –الأخبار- المقامات- النوادر- أدب الرحلة...) فإنّ النقّاد العرب القدامى لم يلتفتوا إلى خصائصها السرديّة ولم يكترثوا بأجناسها الأدبيّة. ولم يكن حظّ تلك الأجناس الأدبيّة الأصيلة ولا حظّ الأجناس الأدبيّة المهاجرة إلى الأدب العربيّ لدى الدارسين العرب المحدثين الأوائل أفضل بكثير من حظّ التراث السردي لدى أسلافهم.

ومن ثمّ، فإنّ دارس المذكّرات لا يعثر في كتابات النقّاد العرب على خصائص جنسها الأدبيّ ولا على الحدود الفاصلة بينه وبين الأجناس الأدبيّة المجاورة له أو القصيّة عنه، ويجد نفسه مدفوعا إلى التعويل على أعمال الشعريّين الغربيّين تعويلا لتبيّن سمات ذلك الجنس الأدبيّ المتسرّب إلى جلّ آداب العالم الشرقيّ والعالم الغربيّ.

والحقّ أنّ الناظر في التحديدات والتعريفات التي أشار إليها كتّاب المذكّرات أو التي استخلصها الدارسون يلاحظ أنّها ليست جامعة مانعة، ولا تغري بالاطمئنان إليها كلّ الاطمئنان لمقاربة النصوص المنتمية إلى ذلك الجنس الأدبي، نظرا إلى تشابه المذكّرات والسيرة الذاتيّة واليوميّات وأدب الرحلة وغيرها من ألوان الحكي الحقيقيّ المتعلّقة بحيوات الكتّاب. ولهذا ذهبPaul Verlaine إلى أنّ كلمة مذكّرات Mémoires كلمة "مرنة فضفاضة، طيّعة عادة للدلالة على مجموعة من الانطباعات والأفكار وغيرها" (جورج ماي: السيرة الذاتيّة، ص46).

أمّا الذين حاولوا ضبط الأركان التي تنهض عليها المذكّرات بمقارنتها بخصائص السيرة الذاتيّة، فإنّ نتائجهم لا تنطبق انطباقا تامّا على مختلف النصوص المتعلّقة بذينك الجنسين الأدبيّين اللّذين لم يستقلاّ عن بعضهما بعض استقلالا تامّا. فالدارسون الذين ذهبوا إلى أنّ النصوص التي يكون مدارها على شخص الكاتب أو على شخصيّته نصوص تنتمي إلى السيرة الذاتيّة، وأكّدوا أن النصوص التي يكون مدارها على الأحداث التي يرويها الكاتب تنتمي إلى المذكّرات لم يظهروا –في الحقيقة- السمات الأجناسيّة الأساسيّة التي

تختصّ بها السيرة الذاتيّة أو المذكّرات (راجع جورج ماي: السيرة الذاتيّة: ص ص 30-33)، ولم يلفتوا الانتباه إلى أنّ الكثير من تلك النصوص لا تنتمي إلى جنس أدبيّ واحد انتماء مطلقـا.

الأهميّة الأجناسيّة:

ونحن إن كنّا نحرص على إنعام النظر في جنس المذكّرات لفحص خصائصه الأجناسيّة، فإنّنـا لا نهدف بذلك إلى الاقتصار على تصنيف الآثار المنتمية إليه، وإنّما نرمي إلى إثبات أنّ قراءة النصوص في ضوء أجناسها الأدبيّة تساعد على تأويلها وفهمها شكلا ومحتوى، وتمهّد السبيل إلى التعمّق في ركن من أركان شعريّتهـا (انظر: Wolf D.Stempel: Théorie des genres, p170). ومن هنا فإنّنا نستغرب نفور بعض الدارسين من تحليل النصوص في ضوء أجناسها الأدبيّة وزعمهم أنّ الآثار الحديثة تمرّدت على الأجناس الأدبيّة تمرّدا. فكلّ أثر أدبيّ ينتمي بالضرورة إلى جنس، أي أنّه حسب قول Hans Robert Jauss "يفترض أفق انتظار، بمعنى مجموعة من القواعد السابقة الوجود لتوجيه فهم القارئ (الجمهور) وتمكينه من تقبّل تقييمي" (نظريّة الأجناس الأدبيّة ص55).

ولا جدال في أنّ الحملة التي شنّها الرومنطقيّون على الأجناس الأدبيّة الكلاسيكيّة هي التي أوهمت الكثيرين بزوال الكتابة في إطار الأجناس الأدبيّة وجعلتهـم يقـدّرون أنّ البيان الرومنطيقي الشهيـر الذي مهّد به هيجو Victor Hugo لكتابه الموسوم بـCromwel سنة 1827 قد أظهر تهافت نظريّة الأجناس الأدبيّة. والحقّ أنّ النزعة الرومنطيقيّة التي شهدتها أروبا خلال القرن التاسع عشر حوّرت مفهوم الجنس الأدبي ولم تفض إلى إلغائه. ذلك أنّ الرومنطقيّين عوّضوا شبكة الأجناس الكلاسيكيّة القائمة على الفصل بين الأجناس فصلا صارما بشبكة أخرى مغايرة.

ونحن نقـدّر أنّ الإشكاليّات الحافّة بنظريّـة الأجناس الأدبيّة هي التي صرفت الكثير من الدارسين عن مقاربة النصوص السرديّة بالاستناد إلى تلك النظريّة، وحملت عددا من كبار الشعريّين على الإقـرار بعجزهم عن تعريف بعض الأجناس الأدبيّة الشهيـرة ورسم حدودهـا. ومن الآيات الدالّـة على تعقّد هذه المسألـة أنّ علاقة الآثار السرديّة بأجناسها الأدبيّة علاقة مجـرّدة وضمنيّة في الآن نفسـه، ذلك أنّهـا علاقـة "صامتة" لا تنطـق بها

في أحسن الحـالات سوى إشـارات نصيّة مصاحبـــة (انظر على سبيل المثال: S. de Beauvoir: Mémoires d'une jeune fille rangée.)

وحتّى إن دلّت المصاحبات النصيّة على نسبة المتون إلى جنس من الأجناس الأدبيّة، فإنّ النقّاد لا يصادقون –دائما- على تلك المواثيق الأجناسيّة. فقد يذكر المؤلّفون انتماء نصوصهم السرديّة إلى بعض الأجناس الأدبيّة وينسبها النقّاد بعدهم إلى أجناس أخرى. وقد يحدّد المؤلّفون نسبة نصوصهم السرديّة إلى أجناس أدبيّة معيّنة، ومنهم من يغيّر تلك النسبة في أوقات لاحقة ويذهب النقّاد إلى تصنيفها تصنيفا مغايرا. بيد أنّ كلّ تلك الجوانب لا تنقص من أهميّة العلاقة النصيّة المصاحبة مثلما سنبيّن ذلك في الإبّان.

المواثيق الأجناسيّة:

إن عدنـا إلى "مذكّرات الشابي" لاحظنـا أنّ الدار التونسيّة للنشر وسمتها بذلك العنوان استنادا إلى النصّ الذي دوّنه الشابي نفسه يوم 6 فيفري 1930 وقال في غضونه مخاطبا زين العابدين السنوسي: "لا أكتب أدبا الآن، ولكنّني أكتب مذكّرات". أمّا الكتاب الذي أصدرته تلك الدار بعنوان "مذكّرات بيرم التونسي في المنفى" فقد تضمّن قسما من الحلقات التي نشرها المؤلّف نفسه تحت عنوان "مذكّرات المنفى" وقسما من الحلقات التي نشرها تحت عنوان "مرسيليا". وإن كانت هوامش الحلقات الثانية لم تشتمل على ميثاق أجناسي، فإنّ متن النصّ الأوّل منها اضطلع بوظيفة نصيّة مصاحبة بإيمائه إلى صلة تلك الحلقات بجنس المذكّرات، إذ قال الكاتب-الراوي: "أقمت في مرسيليا خمسة أعوام وكتبت عنها جادّا وهازلا ولا أراني أسأم الكتابة عنها كلّما مرّ ذكرها بخاطري وأحسب القرّاء لا يسأمون ما أكتبه". وقد أفصح بيرم التونسي بعبارة "مذكّراتي" عن انتماء النصّ الذي صدّر به كتابه الموسوم بـ "مذكّراتي وديواني الأوّل" إلى جنس المذكِّرات وكذلك الشأن بالنسبة إلى طه حسين حين نشر كتابه المعنون بـ "مذكّرات طه حسين".

ولا شكّ في أنّ الأمارات الأجناسيّة التي حفّت بالمتون تضطلع بوظيفة نصيّة مصاحبة أساسيّة، ذلك أنّها توجّه عمليّة تقبّل تلك المتون وتحدّد أفق انتظار القرّاء، سواء منها ما أثبته المؤلّفون أنفسهم أو التي اقترحها الناشرون استنارة بما أشار إليه المؤلّفون في ثنايا المتون، وبما ذكروه في هوامشها. بيد أنّ تلك الأمارات لا تحدّد الخصائص الأجناسيّة المميّزة للمتون المتعلّقة بها، ولا تغني بأيّ وجه من الوجوه عن دراسة النظم الأجناسيّة الكاشفة عن علاقة تلك النصوص السرديّة بأجناسها الأدبيّة. وممّا يحتّم على الدارس

الاضطلاع بتلك الوظيفة أنّ أقوال المؤلّفين لا يمكن أن تنوب عن الدراسات المهتمّة بالعلاقة النصيّة الجامعة، مهما حاولوا تطويع المصاحبات النصيّة للنهوض بوظيفة النصّ النقدي، إذ منهم من يعلن عن قصديّة أجناسيّة معيّنة رغم إخفاقه في تحقيقها ومنهم من يضمّن المصاحب النصيّ ميثاقا أجناسيّا واحدا، في حين أنّ أثره السردي، ينتمي إلى جنسين أدبيّين أو أكثر.

ولكن، كيف يمكن لنا أن ننسب أقسام مدوّنتنا إلى جنس المذكّرات، والحال أنّها تختلف عن بعضها بعض شكلا فنيّا ومحتوى سرديّا اختلافا واضحا؟. ثمّ كيف يتسنّى للمستند إلى حقل الشعريّة أن يبرهن على نسبة نصّ معيّن إلى جنس المذكّرات، والحال أنّ الجنس الأدبيّ مفهوم مجرّد تشكّله خلاصة طبقة من النصوص المفردة. أي أنّه لا يجور لنا –من ناحية- إدراج نصّ في حقل المذكّرات إلاّ إذا حدّدنا خصائص ذلك الجنس الأدبيّ، ولا يتسنّى لنا –من ناحية أخرى- تحديد خصائص جنس المذكّرات، ما لم ندرس النصوص المفردة المنتمية إليه.

الأهميّة المضمونيّـة:

إنّ كتّاب السّير الذاتيّة والمذكّرات يتوجّهون بالدرجة الأولى إلى القرّاء، في حين أنّ المروي، له الأوّل الذي يتوجّه إليه كتّاب اليوميّات هو ذواتهم الخاصّة، أي أنّ كتّاب المذكّرات والسّير الذاتيّة يدوّنونها بقصد نشرها أمّا كتّاب اليوميّات الخاصّة: فإنّهم يحتفظون بها لأنفسهم، وإن فكّروا في إمكانيّة نشرها قبل موتهم أو بعده. وهذا يدلّ على أنّ كتّاب المذكّرات والسير الذاتيّة يكونون في أغلب الأحيان من ذوي الشهرة، إذ من البديهي أنّ الشخص المغمور لا يجازف بنشر أثر متعلّق بشخصيّته، ولا يمكن أن يجد ناشرا مستعدّا لنشر أثره. وإذا ما كانت السير الذاتية عصارة سنّ النضج أو الشيخوخة، فإنّ كتّاب المذكّرات يحرصون على تقديم شهادة على جوانب ذات صلة حميمة بتجاربهم في الحياة ويبلورون ردود فعلهم ممّا راج حولهم من أقوال. ولهذا فإن كانت "السيرة الذاتيّة تحتوي بين دفّتيها كلّ ما سبقها وتفسّره وتبرّره. وهي إلى ذلك تتويج للأعمال أو للحياة التي قدحت شرارتها" (جورج ماي: السيرة الذاتيّة، ص39)، فإنّ المذكّرات تشفّ عن خلاصة تجارب كتّابها وتنير مرحلة هامّة من مراحلها. أمّا اليوميّات فيمكن أن يدوّنها المرء في مرحلة من مراحل حياته، مهما كانت شهرته أو قيمته.

ومن هنا نفهم سبب رواج فنّ المذكّرات في الأدب العربي وفي سائر آداب العالم وتعلّق المشاهير به. ونحن إن اقتصرنـا في هذا المقام على دراسة مذكّرات الأدباء، فإنّ ذلك اللّون رائج رواجا لدى الأدباء والفنّانين والصحفيّين والسّاسة. ولمّا كانت المذكّرات

متعلّقة أساسا بما شاهده كتّابها أو بما سمعوه تعلّقها بأفعالهم وبمواقفهم، فإنّ محتوياتها تتّصل بالأوساط التي اختلطوا بها وبالمسائل والأحداث التي شغلت تفكيرهم ولا تحفل بحيواتهم الخاصّة إلاّ لأنّها تعرض وجهة نظرهم الفرديّة. وتشهد المدوّنة الرئيسيّة التي استندنا إليها في هذه المسألة بأنّ محمود بيرم وطه حسين لم يؤلّفا مذكّراتهما إلاّ وهما في قمّة الشهرة وأنّهما توجّها بها إلى القرّاء بالدرجة الأولى، إذ نشر بيرم التونسي وطه حسين تلك المذكّرات عندما كانا على قيد الحياة. وبما أنّهما اتّخذا مواقف شخصيّة جريئة وسلكا مسالك أدبيّة أثارت حولهما خصومات، فإنّهما أطنبا في تحليل الوقائع والأحداث التي تعرّضا لها وأمعنا في تبرير مواقفهما تبريرا ترجم عن ميلهما إلى الدفاع عن نفسيهما وإبراز أهمّيّة اتجاهاتهما. ومن ثمّ تسرّبت إلى خطاباتهما نزعة الشعور بالتفوّق والاستعلاء بقدر ما تلوّنت بسمات الكآبة والغربة، وتميّزت من خطاب نصوصهما الإبداعيّة تميّزا.

ولهذا يتحتّم على الدارس تجويد النظر في عتبات تلك المذكّرات وإبراز أهميّتها في توجيه قرّاء المتون المتعلّقة بها وتحديد عوامل نشأتها واستخلاص قيمتها.

الدرس الثاني:

المذكّرات ومسألة التصنيف

المذكّرات والسيرة الذاتيّة :

إنّ قدم فنّ المذكّرات في الأدب الغربيّ وشيوع المصطلح الدال على الآثار المنتمية إليه جعل المبدعين والدارسين الكلاسكيّين يعمدون في البداية إلى إطلاق ذلك المصطلح نفسه على النصوص السرديّة المحتفلة بالذكريات المتّصلة بحيوات كتّابها، سواء أكانت من قبيل المذكّرات أم من قبيل السير الذاتيّة. إلاّ أنّهم عدلوا عن ذلك التعميم، مفضّلين وسم النصوص السرديّة المحتفلة بحيوات المؤلّفين بالسيرة الذاتيّة وتخصيص عبارة "مذكّرات" للدلالة على النصوص السرديّة التي "تحظى فيها الحوادث المعاصرة والتاريخ بأهمّية أكبر بكثير ممّا تحظى به شخصيّة الكاتب" (جورج ماي: السيرة الذاتيّة ص127).

والحقّ أنّ هذا التمييز يمكّننا من الفصل الفعلي بين قسم من المذكّرات والسير الذاتيّة التي تبدو في شكلها الظاهر متشابهة، ولا يبرز الفروق بين المذكّرات التي يقتصر كتّابها على وصف مشاهداتهم والمذكّرات التي دلّ كتّابها على مشاركتهم في الأحداث. ولهذا حرص بعض الدارسين على استخلاص عنصر ثالث للتمييز بين السيرة الذاتيّة والمذكّرات وذهبوا إلى أنّ إخبار المؤلّف "عمّا شاهد أو سمع وإخباره عمّا أتى أو قال" يدرج النصّ في حقل المذكّرات، أمّا "إخباره عن الأحوال التي كان عليها" فيدرج نصّه في حقل السيرة الذاتيّة (جورج ماي: السيرة الذاتيّة ص132).

ولكنّ تجويد النظر في نصوص السيرة الذاتيّة والمذكّرات يكشف عن أنّ الحدود الفاصلة بينهما ليست حدودا صارمة، إذ أنّ كتّاب المذكّرات كثيرا ما يقحمون أنفسهم فيما يكتبون إقحاما يسم نصوصهم ببعض سمات السيرة الذاتيّة، كما أنّ كتّاب السيرة الذاتيّة كثيرا ما يتذكّرون الأحداث العامّة التي جرت في فترة من فترات حيواتهم ويميلون إلى تدوينها فتنفتح نصوصهم بذلك على بعض خصائص المذكّرات.

والأمر لا يقتصر على علاقات التشابه بين المذكّرات والسيرة الذاتيّة، إذ أنّ نصوص المذكّرات قد تنفتح على خصائص الأجناس الأدبيّة المجاورة لها، مثل الرسائل واليوميّات الخاصّة وأدب الرحلة وغيرها من ألوان الحكي الحقيقي. بل إنّها تنطوي –أحيانا- على بعض خصائص الأقاصيص والقصص القصيرة. ومن الطبيعيّ والحال تلك أن يرتبك الباحثون عن مظاهر التماثل بين النصوص التي أبان كتّابها أو دارسوها عن انتمائها إلى أدب المذكّرات ويذهبوا إلى أنّ ذلك الجنس الأدبي عصيّ على التحديد، ويميلوا إلى

مواقف أولئك الذين زعموا أنّ مسألة الأجناس الأدبيّة لم تعد جديرة بالاهتمام منذ أمد بعيد.

الإشكاليّة الأجناسيّة:

إنّ المنظّرين الذين راموا استخلاص خصائص جنس المذكّرات واجهوا المعضلات الأساسيّة التي واجهها منظّرو سائر الأجناس الأدبيّة. فقد اقتنع أولئك المنظّرون اقتناعا لا يرقى إليه الشكّ بأنّ النصّ المفرد لا يكون أبدا نمطا لجنس أدبي. ذلك أنّنا –حسب عبارة KARL VIETOR – "نحصل على نمط جنس أدبي معيّن بفضل دراسة جامعة لكلّ الآثار الفرديّة التي تنتمي إلى هذا الجنس. إنّ النمط تجريد، وهو بتعبير آخر التعريف أو الرسم التصوّري لما يكوّن -إن جاز القول- البنية الأساسيّة" (نظريّة الأجناس الأدبيّة ص ص 32-33).

ومن أجل ذلك وجد المنظّرون أنفسهم مجبرين على دراسة النصوص المندرجة تحت لواء جنس المذكّرات لاستصفاء نمطه. ولكن، كيف يتسنّى للباحث أن يبرز أنّ تلك النصوص تنتمي –فعلا- إلى جنس المذكّرات قبل أن يستجلي نمط ذلك الجنس الأدبيّ؟.

إنّ السبيل الأقوم إلى حلّ هذا الإشكال يتمثّل في انتقاء مدوّنة صغرى باعتبارها أنموذجا أوّليّا لجنس المذكّرات والتوسّل بعمليّات قياسيّة لتبيّن الأركان الثابتة والأركان المتحوّلة في نصوص تلك المدوّنة. وينبغي على الباحث أن يعمد إثر ذلك إلى توسيع حقل تلك المدوّنة الأوّليّة ليعدّل بعض النتائج ويدعم بعضها الآخر. وعلى ذلك الأساس تتجلّى العناصر المهيمنة التي تتحكّم في مختلف نصوص المذكّرات وتنكشف قسمات جنسها الأدبيّ.

ولكن، إن كانت نصوص المذكّرات في الأدب العربي أو في سائر آداب العالم متباينة تباينا، فإنّ تك الظاهرة تعرقل سعي المتوسّل بالعمليّات القياسيّة لاستخلاص خصائص جنسها الأدبيّ، وتجعل التوق إلى تعريفها تعريفا جامعا مانعا أمرا عسيرا.

وممّا لا شكّ فيه أنّ ذلك ليس ناجما عن كون نصوص المذكّرات لا تنتمي إلى جنس أدبي، وإنّما مبعثه أنّ دارسي المذكّرات الذين لم يتفطّنوا إلى أنّها تتميّز بتكاثر أجناسي لم يهتدوا إلى الطريقة الناجعة التي تخوّل لهم دراسة جنس المذكّرات دراسة معمّقة.

ومهما كانت عبقريّة الكاتب وحرصه على التجديد والتميّز، فإنّه يولّد آثاره، إن شعوريّا وإن لا شعوريّا من آثار أخرى سابقة بالنسج على منوالها أو بمحاولة الانزياح عن بعض

خصائصها. ولهذا تنضوي نصوصه –بالضرورة- تحت لواء جنس من الأجناس الأدبيّة. وعندما يقرأ المرء نصّا من النصوص الأدبيّة، فإنّه يقرؤه في ضوء النصوص القابعة في ذاكرته: أي في ضوء طبقات النصوص المكوّنة للأجناس الأدبيّة، ومن هنا فإنّ كلّ أثر يفترض أفق انتظار. والأمر في الأدب مضارع للأمر في اللّغة، إذ "كما أنّه لا يوجد تواصل باللّغة لا يمكن إرجاعه إلى معيار أو اصطلاح عامّ اجتماعي أو مشروط بسياق" (نظريّة الأجناس الأدبيّة ص55). فإنّنا "لا يمكن أن نتصوّر أثرا أدبيّا يوجد داخل ضرب من الفراغ الإخباري ولا يرتهن بأيّ وضعيّة مخصوصة للفهم" (نظريّة الأجناس الأدبيّة ص55). وهكذا يحقّ لنا التسليم بأنّ كلّ أثر ينتمي حتما إلى جنس أدبي، أي أنّه يفترض أفق انتظار معيّن.

ولا جدال في أنّ المؤلّفين المبتدئين أو ضعيفي المواهب هم الذين يتشبّثون بالحدود التقليديّة لجنس من الأجناس الأدبيّة ولا يجازفون بالخروج عنها. أمّا أعلام الأدباء فإنّهم يخضعون لحدود الأجناس الأدبيّة بقدر ما يسعون إلى اختراقها اختراقا يترجم عن تميّزهم ويبرهن على قوّة طاقاتهم الإبداعيّة.

العناصر المهيمنـة:

إنّ أوجه التنافر بين أنماط المذكّرات وفنيّاتها ومحتوياتها قد يحمل القرّاء على التسليم بتشتّت نصوصها وانعتاقها من قبضة نظريّة الأجناس الأدبيّة ويغريهم بتصوّر أنّها تحتضن ما شاءت من خصائص الأجناس الأدبيّة دون أن تخضع لأيّ منطق. والحال أنّ كلّ نصّ أدبيّ، مهما تعدّدت صلاته بأجناس أدبيّة مختلفة ينخرط في جنس أدبيّ رئيسيّ، بناء على العناصر الأجناسيّة المهيمنة عليه.

إنّ مفهوم العنصر المهيمن Dominante الذي بلوره بعض الشكلانيّين الروس قد راج رواجا بفضل جهود الإنشائي جاكبصون Jacobson الذي بيّن أنّ الوقوف على العنصر المهيمن المتحكّم في نظام الآثار المركّبة هو السبيل الأقوم إلى تحديد الجنس الأدبي الرئيسيّ الذي تنتمي إليه (D.combe : Les genres littéraire. P/117-118). وينبغي ألاّ نتصوّر أنّ هذه الهيمنة هيمنة كمّية، إذ أنّها هيمنة كيفيّة تشفّ عن المقصديّة الأجناسيّة الأساسيّة التي تحكّمت في المؤلّف لحظة إنشاء نصّه. ومن هنا، فإنّ الوقوف على العناصر المهيمنة يهدينا إلى العناصر الأجناسيّة التي لها وظيفة مكوّنة والعناصر التي لها وظيفة مصاحبة، بقطع النظر عن حجمها الكمّي. فإذا كان –على سبيل المثال- بطل رواية من الروايات شاعرا وأورد المؤلّف في غضونها القصائد التي ألّفها ذلك البطل

الشاعر، فإنّ تلك الرواية لا تنقلب إلى ديوان شعر، وإنّما تبقى رواية، رغم أنّ المقاطع التي تنطوي على الخصائص الروائيّة المهيمنة أقلّ عددا من الأبيات الشعريّة المضمّنة في كامل النصّ.

القصديّـة الأجناسيّـة:

إنّ المذكّرات تنتمي إلى الحكي الحقيقي، بما أنّ محتوياتها السرديّة تتعلّق بحيوات مؤلّفيها الخاصّة. ولا بدّ للدارس من البدء بتبيّن القصديّة الأجناسيّة التي يشير إليها المؤلّفون –أحيانا- ليمهّد السبيل إلى تحديد الأجناس الأدبيّة التي تنتمي إليها آثارهم. ومن هنا تكتسي هوامش النصوص أهميّة بالغة، إذ أنّها تشتمل على المواثيق الأجناسيّة الكاشفة عن القصديّات الأجناسيّة. وتعتبر تلك المواثيق مواثيق ائتمانيّة بصرف النظر عن عجز المؤلّفين عن تحقيق مقصديّاتهم أو نجاحهم في ذلك. وإذا ما أمسك المؤلّفون –لسبب من الأسباب- عن إثبات الأمارات الأجناسيّة الدالّة على مقصديّاتهم في هوامش المتون، فإنّ عناصر المصاحب النصّي القصيّة عنها كثيرا ما تسدّ تلك الثغرة. وإن صمتت المصاحبات النصيّة عن النطق بتلك القصديّة صمتا باتّا، فإنّ الدارس يجد نفسه محمولا على فحص النصوص الأخرى المضطلعة بوظيفة نصيّة مصاحبة ليختبر ما ذهب إليه الرواة الذين عرضوا وجها من وجوه حيواتهم الخاصّة ولمّحوا إلى أنّهم المؤلّفون أنفسهم.

إنّ هذه المسالك التي أشرنا إليها هي السبيل القويم إلى إظهار اتّحاد أعوان السرد في أثر من الآثار السرديّة. وإذا ما أثبتنا ذلك وتجلّى لنا أنّ الكاتب-الرّاوي أطلعنا على وجه من وجوه حياته الخاصّة جاز لنا الذهاب إلى أنّ النصّ الذي نحن بصدده ينتمي إلى الحكي الحقيقي، واتّضحت لنا بعض الأركان الأساسيّة التي ينبغي توفّرها لإدراج ذلك النصّ في حقل المذكّرات.

وهكذا يتجلّى أنّ العمليّة الأولى المتّجهة صوب المصاحب النصيّ تبقى عمليّة مبتورة ما لم تشفع بعمليّة ثانية متّجهة صوب المتن. وبفضل تلك العمليّة الثانية يتمكّن الدارس من فحص شبكة العلامات الدلاليّة والشكليّة التي تحدّد الجنس الأدبيّ. وبهذا التوجّه تتكشف للدارس العناصر الأجناسيّة المهيمنة على النصّ الذي هو بصدد تحليله وتتّضح معالم الجنس الأدبيّ الرئيسيّ أو الفرعيّ الذي ينتمي إليه وتبرز درجة توفيق المؤلّف في تحقيق مقصديّته الأجناسيّة.

تحديد شعريّة المذكّرات:

لا شكّ في أنّ تعريف المذكّرات وتحديد خصائصها الأجناسيّة وضبط حدود جنسهـا الأدبي عمليّات عسيرة ومتشعّبة، نظرا إلى اختلاف نصوص تلك المدوّنة شكلا فنيّا ومحتوى سرديّا، وتشابه قسم من أركانها مع بعض أركان سائر أنماط الحكي الحقيقيّ وتنوّع المواثيق الأجناسيّة الحافّة بمتونها وتدخّل الناشرين في تغيير تلك المواثيق أحيانا.

ورغم كلّ ذلك فينبغي على الدارس ألاّ يزهد في الاستنارة بنظريّة الأجناس الأدبيّة ولا في فحص الخصائص الأجناسيّة التي تنطوي عليها تلك النصوص وضبط النظم المتحكّمة فيها، لأنّ الاعتناء بتحديد شعريّة المذكّرات ليس عمليّة شكليّة تصنيفيّة بقدر ما هو مسلك قويم إلى تحديد أدبيّتها واستخلاص دلالاتها وإظهار قيمتها.

ولهذا فإنّنا لا نرى مناصا من تحليل مختلف العلاقات التي نسجتها تلك النصوص مع غيرها من النصوص وإدراجها في السياق التاريخيّ الاجتماعي الذي حفّ بنشأتها، إذ على ذلك الأساس يتسنّى لنا –من ناحية- فحص أهميّة المصاحبات النصيّة التي أثبتها المؤلّفون أنفسهم في جلّ الحالات وتبيّن مقاصدهم من وضعها والاستنارة بها للنّفاذ إلى عوالمهم السرديّة. كما يتسنّى لنا من -ناحية أخرى- الوقوف على متناصّاتها وتحديد وظائفها الفنّيّة والدلاليّة ورصد سماتها الأجناسيّة وتبيّن صلاتها بالأجناس الأدبيّة التي أشارت إليها المصاحبات النصيّة وبالأجناس الأدبيّة التي صمتت عنها. وفي ضوء ذلك تتجلّى لنا مقاصد مؤلّفيها ووجوه قيمتها ويثبت لدينا تهافت المقاربات المحايثة التي تعزل الآثار عن سياقاتها الأدبيّة والاجتماعيّة.

القسم الثاني:

العلاقـة النصيّة المصاحبـة

الدرس الثالث:

عتبات مذكّرات الشابي

تمهيــد:

أ ـ فروع المصاحبات النصيّة :

إنّ إسراف النقّـاد الكلاسيكيّين في الاستناد إلى سير الكتّاب وإلى مواقفهم النظريّة لتحليل آثارهم الإبداعيّة قد أدّى بهم إلى إسقاط تلك المعلومات على النصوص الإبداعيّة وطمس خصائصها الشعريّة وقيمتها الفكريّة في جلّ الحالات. ومن أجل ذلك نفر النقّاد المحدثون من تلك النزعة النقديّة الكلاسيكيّة ودعوا إلى عزل النصوص الإبداعيّة عن سياقاتها الأدبيّة والاجتماعيّة لمقاربتها مقاربة نصّيّة محايثة. إلاّ أنّ الأعمال الشعريّة التي تعلّقت بالعناوين الأصليّة والفرعيّة وبالشواهد والإهداءات والمقدّمات التي يثبتها المؤلّفون في هوامش متونهم قد أظهرت قيمة تلك النصوص المصاحبة وانتهت إلى تصنيفها تصنيفا دلّ على أنّ الكثير من طبقاتها يشكّل أجناسا نصيّة مصاحبة. وقد تفطّن بعض أعلام الشعريّة إلى أنّ الأحاديث التي يدلي بها المؤلّفون قبل نشر آثارهم الإبداعيّة أو بعدها وبعض محتويات آثارهم السابقة أو اللاّحقة المشيرة إلى نصّ من نصوصهم الإبداعيّة الأخرى تمثّل نصوصا مصاحبة لها، إذ أنّها تلمّح إلى مقصديّاتهم الأجناسيّة وتكشف عن رؤاهم الفكريّة وتدلّ على عوامل نشأتها. بل إنّ الدراسات المهتمّة بالعلاقات النصيّة المصاحبة أظهرت أنّ السياقات التي تنشأ فيها الآثار الإبداعيّة تضطلع بوظيفة مماثلة لوظيفة المصاحبات النصيّة كما أظهرت أنّ المتون نفسها تنهض – أحيانا- بوظائف نصيّة مصاحبة عندما تلمّح إلى مقصديّات مؤلّفيها الأجناسيّة وتنطوي على إشارات دالّة على عوامل نشأتها، مثلما ستتبيّن ذلك في الإبّان.

وبتطوّر الدراسات الشعريّة وتفرّع حقولها اتّضح أنّ كلّ نصّ مفرد يكتب – في حقيقة الأمر- بنصوص أخرى سابقة كتابة كاشفة عن تنوّع علاقاته بها. وبناء على ذلك شاع مصطلح L'intertextualité الذي بلورته جوليا كريستيفا Julia Kriteva في الستّينات وأمست العلاقات التي تنسجها النصوص المفردة مع سائر النصوص الأخرى من أهمّ

مجالات الدراسة الشعريّة في الوقت الرّاهن، وباتت العلاقة النصيّة المصاحبة حقل اهتمام الكثير من الدارسين.

ولا جدال في أنّ المؤلّفين الذين تفنّنوا في نحت العناوين الأصليّة والفرعيّة وأحاطوا متون آثارهم بهوامش مختلفة شكلا ومحتوى لم يبذلوا ذلك الجهد عبثا، وإنّما حرصوا على توجيه القرّاء لتأويل نصوصهم تأويلا مناسبا لمقاصدهم. ومن ثمّ يتأكّد أنّ العلاقة الصريحة أو الضمنيّة بين المتون وهوامشها تشكّل عتبة منفتحة على عوالم تلك المتون، نظرا إلى اشتمال المصاحبات النصيّة على إشارات تمهّد السبيل في فهم محتوياتها واستخلاص خصائصها الشكليّة وتبيّن مقاصد مؤلّفيها.

ب ـ قيمـة العتبـات :

إنّ الدارسين كثيرا ما يُعرضون عن الالتفات إلى العناصر النصيّة المصاحبة ويقتحمون عوالم النصوص الأدبيّة من منافذ أخرى. ورغم ذلك فمن المؤكّد أنّ زهدهم في تلك العلاقة يحجب عنهم قسما هامّا من خصائص المدوّنة المتعلّقة بها. بيـد أنّه لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ جيرار جينـات Gérard Genette الذي أفاد من دراسات سابقيه وخصّ المصاحبات النصيّة بكتابه الموسوم بـ "عتبات" (Seuils) قد نبّه إلى أهميّة المصاحب النصيّ بقدر ما حذّر من التغافل عن منزلته من المتون المتعلّقة به. فالمصاحبات النصيّة تربض بهوامش المتون أي بعتباتها ولا تمثّل بالتالي قسما من خطابها، كما أنّها لا يمكن أن تنوب عنه أو تغني عن دراسته. ولا ريب في أنّ الشعريّين نبّهوا إلى ضرورة الحذر عند تحليل العلاقات النصيّة المصاحبة لأنّ بعض عناصر المصاحب النصيّ كثيرا ما تتّسع اتّساعا يغري القرّاء بالتعويل عليها للحكم على مختلف خصائص المتون المتّصلة بها، كما تغريهم بتفضيلها على النصوص النقديّة. بل إنّ منهم من يستعيض بها عن قراءة المتون ودراستها نظرا إلى أنّ مؤلّف النصّ الإبداعيّ نفسه هو الذي دوّنها.

ومن كلّ هذا يتأكّد لدينا أنّ الدارس الذي يروم الوقوف على شعريّة المذكّرات وتحليل أدبيّتها مدعوّ إلى فحص مختلف العلاقات التي نسجتها متونها مع غيرها من النصوص، لأنّ موضوع الشعريّة ليس التأليف المفرد المعزول عن سياقه الأدبيّ وإنّما هو النظام الأدبيّ الذي ينهض عليه ذلك النصّ والعناصر المكوّنة له وقوانينه. وبما أنّ المصاحبات النصيّة ذات علاقات صريحة وضمنيّة بالمتون المتعلّقة بها، فإنّ دراسة تلك العلاقة تمثّل ركنا أساسيّا من أركان المقاربة الشعريّة، مثلما انتهت إلى ذلك الدراسات الحديثة.

ونحن إن كنّا على يقين من أنّ عتبات النصّ تسوق إلى القارئ معلومات شتّى تكيّف إن قليلا وإن كثيرا عمليّة التلقّي، فإنّنا نحذّر من إسقاط تلك المعلومات على الآثار إسقاطا يطمس خصائصها الشعريّة ويسوّي بين جميع فصولها وأقسامها.

ولمّا كانت المواثيق الأجناسيّة التي تنطوي عليها المصاحبات النصيّة مواثيق ائتمائيّة، فمن صالح الدارس ألاّ ينخرط فيها انخراطا مطلقا وألاّ يفصمها إلاّ بعد فحص المتون المتّصلة بها واستخلاص خصائصها. والطريف في المذكّرات والسير الذاتيّة واليوميّات أنّها تمثّل عنصرا هامّا من عناصر المصاحبات النصيّة بالنسبة إلى دارس الآثار الإبداعيّة التي أنتجها مؤلّفوها. أمّا دارس النصوص المنتمية إلى تلك الأجناس الأدبيّة فإنّه يباشرها باعتبارها متونا محفوفة بمصاحبات نصيّة مثل سائر المتون الأخرى. ومن ثمّ تستحيل النصوص الإبداعيّة التي أنتجها مؤلّفوها إلى عنصر من عناصر مصاحباتها النصيّة.

مذكّرات الشابي ومصاحباتها النصّيـة:

إنّ ناشر المذكّرات التي ألّفها الشابي هو الذي وسمها بعبارة "مذكّرات" استنادا إلى النصّ الأخير الذي اضطلع بوظيفة نصيّة مصاحبة، مثلما أشرنا إلى ذلك سابقا. وبما أنّ عبارة "مذكّرات" عبارة اصطلاحيّة محيلة على جنس أدبيّ مخصوص، فإنّ ذلك العنوان انطوى على ميثاق أجناسي محدّد. ومع ذلك فليس من صالح الدارس الموافقة على بنود ذلك الميثاق إلاّ بعد دراسة المتن نفسه دراسة شعريّة بصرف النظر عن اتّفاق الناشر والمؤلّف اتّفاقا ضمنيّا على إدراج ذلك الكتاب في حقل المذكّرات. وممّا يدفعنا إلى الاحتراز من الانخراط في ذلك الميثاق أنّ المقاطع التي شفّت عن مقصديّات المؤلّف نفسه قد أبانت عن أنّ مقصديّته الأساسيّة تعلّقت بكتابة يوميّات. ومن آيات ذلك قوله في مستهلّ أحد نصوصه: "أستعرض حوادث هذا اليوم لعلّي أجد فيها ما يستحقّ الذّكر والتعليق فلا أجد شيئا يلفت النظر. وإنّما هي حوادث سخيفة عادية، لا تقف عندها النفس ولا تثير الوجدان".

وإذا ما جوّدنا النظر في العنوان الرئيسيّ الذي وضعه الناشر وفي العناوين الفرعيّة التي وضعها الشابي لاحظنا أنّ العنوان الرئيسيّ اضطلع بوظيفة غرضيّة إلى جانب اضطلاعه بوظيفة أجناسيّة. أمّا العناوين الفرعيّة فإنّها اضطلعت بوظيفة أجناسيّة بتلميحها إلى صلة النصوص المتعلّقة بها بجنس اليوميّات، وحدّدت –فضلا عن ذلك- تاريخ التدوين. وفي ضوء ذلك يتجلّى السياق التاريخي الذي نشأت فيه تلك النصوص وتصبح النصوص الأدبيّة التي كتبها الشابي قبل سنة 1930 والنصوص التي أعرب فيها عن مواقفه من المتلقّي نصوصا مصاحبة دالّة على عوامل نشأة تك المذكّرات (اليوميّات كما سنرى)

ومقاصد مؤلّفها منها. وبما أنّ المذكّرات واليوميّات تنتمي إلى الحكي الحقيقي المحتفل بذوات الكتّاب، فإنّ النصوص المترجمة عن حياة الشابي تنهض –حتما- بوظيفة نصيّة مصاحبة.

تفرّع النصوص المصاحبة:

ليس من شكّ في أنّ صدى المحاضرة التي ألقاها الشابي خلال شهر فيفري 1929 يضطلع بوظيفة نصيّة مصاحبة بالغة الأهميّة، لأنّها تدلّ على بعض الأسباب التي دفعته إلى الانطواء على نفسه وكتابة مذكّراته (يوميّاته) كما تساعدنا على الاهتداء إلى سبب من أسباب نفوره من المجتمع وتصرفنا عن إرجاع مواقفه بصورة عشوائيّة إلى تأثّره بالمذهب الرومانسي. فقد ألقى الشابي تلك المحاضرة وهو في العشرين من عمره تأثّرا بالنزعات التجديديّة التي شغلت أدباء المشرق فتقبّلها أنصار التجديد تقبّلا حسنا جعله –فيما نقدّر- يشعر بنخوة الأدباء الأعلام. إلاّ أنّ تحامل أنصار القديم على آراء الشابي وقلّة اكتراثهم بقصائده قد عمّقا –دون ريب- شعوره بالغبن. وإذا امتزجت تلك المشاعر في ذات المرء فإنّ ذلك يسلمه إلى أزمة نفسيّة حادّة. وإن أضفنا إلى هذا وفاة والد الشابي خلال شهر سبتمبر من نفس السنة وإصابته بداء القلب وانقطاعه عن مراسلة الحليوي والبشروش خلال تلك الفترة بان لنا السياق القاتم الذي حفّ بنشأة تلك المذكّرات.

ولكن، لماذا عزم الشابي على تدوين مذكّراته أصلا، بعد أن بلور نظرته إلى الحياة في شعره وأعرب فيه عن مواقفه من الجمهور وصوّر الآلام التي كابدها تأثّرا بموت والده وبالمرض المرعب الذي ألمّ به.

إنّ الراجح عندنا هو أنّ محمد الحليوي زرع في الشابي بذرة تدوين مذكّراته وأوحى إليه –دون قصد مباشر- بوسمها بـ"صفحات دامية من حياة شاعر": ذلك العنوان الذي أكّد بعض الدارسين أنّه عنوان مخطوط المذكّرات. فقد أرسل الحليوي رسالة إلى الشابي يوم 02 سبتمبر 1929 –أي قبل وفاة والد الشابي بأسبوع- ليشاركه حزنه على مرض والده وختمها بقوله: "ولئن تأسّفت على شيء في حياتي فما أسفي إلاّ على هذه الأطوار التي مرّت بي دون أن أقيّد فيها خطراتي أو أدوّن آلامي ونغماتي ويشهد الله أنّها آلام ذهبت صامتة إلى وادي النسيان والتحقت بعالم الآلام غير المشكوّة".

فلا غرابة إذن أنّ تردّد ذاكرة الشابي أصداء ذلك الكلام إثر وفاة والده وتحمله على تدوين آلامه حتّى لا تذهب هي أيضا إلى وادي النسيان وتقوده إلى عنونة مخطوطه بذلك العنوان.

ومع هذا، فإنّنا نقدّر أنّ عوامل نشأة كتاب الأيّام كانت دافعا من الدوافع التي حملت الشابي على تدوين مذكّراته (يوميّاته) ذلك أنّ طه حسين ألّف ذلك الكتاب ردّا على أنصار التقليد واتّهاما لمن تحامل على تفكيره وشكّك في إيمانه عندما نشر كتابه الموسوم بـ "في الشعر الجاهلي". ونحن إن عدنا إلى فاتحة "الخيال الشعري عند العرب" وجدنا الشابي يؤكّد أنّه نشر نصّ المحاضرة "دون نقص أو زيادة أو حذف" ليتّخذ القارئ فيما نقدّر شاهدا على بطلان ادّعاءات مناهضيه، أولئك الذين قال عنهم في إحدى رسائله: إنّهم "ثاروا وعجّوا ورموني بكلّ سخط ونكير" (رسالة إلى الدكتور علي الناصر، مجلّة الفكر، نوفمبر 1984). وذكر في يوميّة 20 جانفي أنّ منهم من رماه بالزندقة والكفر.

أمّا كتابات الشابي التي ترشح بمعجم الرومنسيّين وتثبت انخراطه في الموجة التي دفعها بعض روّاد التجديد منذ مطلع القرن العشرين في المهجر والمشرق، فإنّها لا تهمّ دارس المذكّرات إلاّ باعتبارها عتبة من عتباتها الكثيرة. أي أنّها لا تمثّل سوى عنصر من العناصر المشكّلة لإحدى العلاقات التي لا يجوز أن تصرفنا عن تحليل الصلات الأخرى وعن تبيّن ما يميّز خطاب المذكّرات من سائر خطابات الأعمال التي ألّفها الشابي.

تلك هي فروع المصاحبات النصيّة الحافّة بمتن مذكّرات/يوميّات الشابي وتلك هي فيما نرى وجوه الاستفادة منها لاستخلاص علاقة من علاقات تعاليها النصيّ.

الدرس الرابـع:

عتبات "مذكّرات بيرم التونسي"

تمهـيـد :

عُرف محمود بيرم التونسي في تونس باسم محمود بيرم، نظرا إلى أنّه حفيد مصطفى بيرم الذي هاجر إلى مصر سنة 1840حسب بعض الروايات، لمّا رفضت عائلته الاعتراف به، لأنّ والده أنجبه من جارية. أمّا محمود بيرم فذهب إلى أنّ جدّه مرّ بالإسكندريّة بعد أداء فريضة الحجّ ورغب في الإقامة بها بجوار عدد كبير من أصيلي شمال إفريقيا. ولهذا بقي محتفظا بجنسيّته واشتهر في مصر باسم محمود بيرم التونسي، بل إنّهم كثيرا ما لقّبوه بالتونسي فحسب. ولهذه المعطيات وظيفة نصيّة مصاحبة هامّة، ذلك أنّها تبرّر جرأته الأدبيّة وتدلّ على أسباب اقتصار السلطات المصريّة على نفيه من مصر.

وقد ولد محمود بيرم بالإسكندريّة سنة 1893 حيث درس بالكتّاب وبالمدارس الدينيّة، ثمّ انقطع عن التعليم بسبب ظروف عائليّة قاسية واشتغل بالتجارة والصناعة من دون أن يدرّ عليه ذلك أموالا كافية. إلاّ أنّه لم ينقطع خلال تلك المرحلة عن القراءة ومال إلى مجالسة الأدباء الشعبيّين فنمّى ملكته الأدبيّة تنمية ظهرت أماراتهـا في القصيد الذي أدان فيه المجلس البلديّ إدانة تسبّبت في انتشار صيته بمصر.

ورغم تلك الشهرة التي نالها بيرم، فإنّه أعرض عن الفصحى عندما فكّر في اتّخاذ الأدب وسيلة رزق، ومال إلى كتابة الأزجال التي لها رواج لدى الموسيقيّين ولدى منتجي الأفلام آنذاك، كما كتب المسرحيّـات بالعاميّة وساند بشعره العاميّ ثورة 1919 على المستعمر الإنجليزي وعلى السلطة المصريّة الموالية له. ومن أجل ذلك أصدر بالإسكندرية جريدة اسمها "المسلّة" قام بتوزيعها بنفسه، ثمّ انتقل إلى القاهرة حيث نشر بتلك الجريدة أزجالا بعنوان "البامية السلطاني والقرع الملوكي" تهجّم فيها على الملك فؤاد وطعن في عرضه بالإشارة إلى أنّه أنجب ابنه فاروق بعد أربعة أشهر من الزواج.

ولهذا أوقف الملك فؤاد تلك الجريدة فأصدر بيرم جريدة أخرى بعنوان "الخازوق" تهجّم فيها على المحافظ زوج ابنة السلطان فؤاد في مقال بعنوان "لعنة الله على المحافظ".

وعندئذ اتّفق الملك مع الإنكليز على الاتّصال بقنصليّة فرنسا لإخراج بيرم من مصر، بما أنّ جنسيّته التونسيّة تحميه من محاكم مصر وتخوّل له التمتّع بامتيازات الفرنسيّين، نظرا إلى أنّه يعتبر من رعايا فرنسا.

فقد نفي بيرم في فرنسا سنة 1919، رغم جهله اللّغة الفرنسيّة وصعوبة الظّفر بشغل خلال تلك الفترة التي عقبت الحرب الكونيّة الأولى. ولئن اختلف الدارسون في تحديد المدّة الأولى التي حلّ خلالها بيرم بتونس فالرّاجح أنّه أقام بمرسيليا في بداية الأمر مثلما تدلّ على ذلك هوامش مذكّرات المنفى ومنها توجّه إلى تونس، ثمّ رجع إلى فرنسا بعد أسابيع قليلة، لأنّ عائلته لم تحسن استقباله، حسب ما ورد في متن مذكّراته الأخيرة. وبعد حوالي عشر سنوات اتّصل به المشرفون على جريدة الزمان التونسيّة وأسندوا إليه رئاسة تحريرها وحرّضوه على التصدّي لخصومهم السياسيّين.

سياقات نشـر مذكّرات بيرم:

لم يكن بيرم معروفا لدى القرّاء التونسيّين آنذاك، غير أنّه لفت الانتباه إليه بالسّمة التي طبع بها جريدة الزمان وبالعلاقات التي ربطته بجماعة تحت السور وبفضل حلقات المذكّرات التي وسمها بـ"مرسيليا" ونشرها سنة 1933 بإمضاء سائح، ثمّ أضاف إليها مذكّرة أخرى بعنوان "في باريس".

ولا شكّ في أنّ تلك المذكّرات لم تثر استغراب القرّاء آنذاك، بما أنّ بيرم صوّر فيها معالم مرسيليا ونواديها ومنتزهاتها وحلّل طبائع سكّانها وعاداتهم بالاستناد إلى ذكرياته عنها. إلاّ أنّ المتقبّل المطّلع على مذكّرات المنفى التي نشرها بيرم بعد ثلاث سنوات من نشر مذكّراته السّابقة يلاحظ الاختلاف الواضح بين المجموعتين، ويعجب -دون ريب- من تباين قسمات بيرم فيهما. ذلك أنّه نشر فصول "مرسيليا" بإمضاء سائح وعرض ذكرياته من تلك الزاوية، في حين أنّه لوّن مذكّرات المنفى بلون قاتم وأطنب في تصوير مظاهر الغربة والعذاب التي خيّمت على حياته بفرنسا.

ومن هنا يتحتّم على الدّارس إدراج تلك المذّكرات في سياقها التاريخيّ لتبيّن عوامل نشأتها وإدراك الأسباب التي جعلت بيرم يعرض في البداية عن نشر مذكّرات المنفى ويميل إلى تأليف مذكّرات أخرى، ثمّ يُقدم على نشر مذكّرات المنفى بالصحف التونسيّة.

ونحن نذهب إلى أنّه بدأ بنشر مذكّراته عن مرسيليا بتونس ليلفت انتباه القرّاء التونسيّين إلى الغنم الذي غنمه عندما اتّصل بمجتمع غربيّ تمكّن من صنع أسطورة تفوّقه وتمدّنه وليبرّر جدارته بالمنزلة التي احتلّها في الصحافة التونسيّة. أمّا المذكّرات التي ألّفهـا في فرنسا منذ سنة 1919، فإنّها تولّدت –حسب رأينا- عن الظروف الاجتماعيّة والنفسانيّة التي عاشها آنذاك واتّجهت بالدرجة الأولى إلى القارئ المصريّ. إلاّ أنّ نشر تلك النصوص بعد مرور عقد ونصف على زمن التجربة والتدوين الأوّل قد نجم –فيما نقدّر- عن تمثّل

ملامح متقبّل جديد، سواء حافظ بيرم على النصّ الأصليّ أو حوّر بعض جوانبه قبيل النشر، كما أنّها ترمي إلى تحقيق مقاصد أخرى حافّة بالمقاصد الأولى.

ويكفي أن نعود إلى تجربة حياة بيرم في تونس لنلاحظ أنّ كتاباته بجريدة الزمان أثارت سلسلة من المعارك بينه وبين خصوم شنّوا عليه حملات سياسيّة وأدبيّة جعلت أسرة الزمان لا ترضى عن اتّجاهه الذي صرفه عن دعم منزعهم السياسي. ومن ثمّ دبّ الفتور إلى علاقة بيرم بأسرة الزمان وانتهى الأمر إلى انقطاع تلك العلاقة فوجد بيرم نفسه عاطلا عن العمل ورجع من جديد إلى حياة الخصاصة.

وخلال تلك المرحلة رفع المستعمر الحظر عن الصّحف المعطّلة وأجاز إصدار صحف أخرى فاستغلّ بيرم تلك الفرصة وأصدر جريدة خاصّة وسمها بـ"الشباب" (سنة 1936). وبتلك الجريدة أطلق قلمه اللاذع لنقد المستعمر والسخرية من أعلام الأدب والفنّ ومن رجال الحزب الدستوريّ القديم، وعلى صفحاتها نشر قسما من مذكّرات المنفى. وعندما عطّلت سلطات الاحتلال تلك الجريدة تحوّل بيرم إلى جريدة "السردوك" ووسمها بنفس سمات "الشباب" وبها واصل نشر مذكّرات المنفى إلى أن أُقصي عن تونس سنة 1937.

ومن هنا نزعم أنّ بيرم نشر آنذاك مذكّرات المنفى التي صوّرت مظاهر حرمانه وشقائه في فرنسا ليشير إلى تعوّده على مكابدة المصاعب ويستخفّ بخصومه ويظهر قلّة اكتراثه بالحواجز التي وضعوها في طريقه.

أهميّة المصاحبات النصّيّة:

إنّ هذه العناصر النصيّة المصاحبة هي الكفيلة بإنارة سبيلنا إلى تبيّن العوامل التي تسبّبت في نشأة تلك المذكّرات وفهم خطابها وإدراك أسباب التباين بينها محتوى سرديّا وشكلا فنيّا. ولهذا، فإنّنا نميل إلى قراءة تلك النصوص وفق تواريخ نشرها لا وفق تواريخ تأليفها استجلاء لحياة بيرم خلال السنوات التي قضاها في تونس وتحديدا لعلاقاته بالمتلقّي التونسي. أمّا إذا رمنا الوقوف على فترة إقامته بالمنفى الفرنسي، فإنّ تواريخ النشر لا تضطلع بنفس القيمة النصيّة المصاحبة، ذلك أنّ الحلقين تتعاضدان على التعريف بتلك المرحلة من وجهة نظر بيرم نفسه.

ولكن، رغم أنّه وسم قسما من مذكّراته بمذكّرات المنفى لأنّه دوّنه بفرنسا، وصوّر فيه بعض مظاهر حياته بها، ووسم قسمها الذي دوّنه في تونس بـ"مرسيليا" و"في باريس"، فإنّ الدار التونسيّة للنشر أصدرت القسمين تحت عنوان رئيسي واحد. وإن كانت قد حافظت على العنوان الفرعيّ الذي وضعه بيرم لمذكّراته عن مرسيليا، واتّخذته عنوانا

شاملا لتلك المذكّرات، فإنّها لم تثبت لمذكّرات المنفى عنوانـا فرعيّـا شاملا، وإنّما وضعت عناوين فرعيّة جزئيّة لكلّ حلقة من حلقاتها.

وقد تصرّفت تلك الدار في نصوص بيرم تصرّفا قطع عنها أهمّ الشرايين المغذية، ذلك أنّها رتّبت فصول الكتاب استنادا إلى تاريخ تدوين الفصل الأوّل من مذكّرات المنفى، بدل المحافظة على تواريخ النشر، كما أنّها لم تراع التبويب الأصليّ للفصلين الأوّلين من فصول "مذكّرات المنفى" وأهملت فصلين نشرا بجريدة "الزمان" سنة 1933 وفصلين آخرين نشرا بجريدة "السردوك" سنة 1937، من دون أن تتدارك ذلك النقص في طبعاتها اللاّحقة. بل إنّها عرّفت بمذكّرات بيرم تعريفا ساذجا حجب جميع خصائصهـا. وهكذا وجّهت الدار التونسيّة للنشر القرّاء لقراءة فصول ذلك الكتاب وفق الترتيب الذي اختارته هي وحملتهم على اعتبارها نصّا واحدا. وطبيعيّ والحال تلك أن تفضي قراءة ذلك الكتاب إلى تأويلات مبتورة تارة ومتناقضة تارة أخرى.

إنّ تباين مجموعتي المذكّرات المنشورة بتونس يوطّد علاقاتها بحياة محمود بيرم التونسي في المنفى، نظرا إلى أنّ خطابها كشف عن نفسيّته وهدى إلى مكوّنات شخصيّته ودلّ على مرجعيّاته الفكريّة وترجم عن طاقات قلمه خلال طور هامّ من أطوار حياته. وبذلك كانت تلك المذكّرات المتعلّقة بفترتي الشباب والكهولة مكمّلة للمذكّرات الأخيرة التي دوّنها بيرم في طور الشيخوخة.

وإذا ما استنرنا بالمصاحب النصي الدال على سيرة حياة بيرم لاحظنـا أنّ كتاباته بتونس دفعت خصومه إلى التعاون مع سلطات الاستعمار على إخراجه من البلاد ونقله إلى سوريا، حيث لاقى المصير نفسه وتمّ الاتّفـاق على ترحيله إلى بلد إفريقيّ. إلاّ أنّه تسلّل إلى مينـاء بورسعيد سنة 1938 عندما أرست الباخرة به، ثمّ توجّه إلى القاهرة. وعندئذ اتّصل به بعض رجال السياسة وأخبروه بأنّهم سيعينونه على البقاء بمصر إذا هجا النحاس باشا ومدح الملك فاروق فاستجاب لرغبتهم كي لا يُجبر على العودة إلى المنفى الذي أقام به حوالي عشرين سنة في غربة مضنية عبّر عنها بأزجال عديدة جعلت أحمد شوقي يقول إنّي أخشى على العربيّة من بيرم.

ومن أجل ذلك هجا بيرم النحاس باشا ومدح الملك فاروق بقصيدة زجليّة تذلّل فيها تذلّلا جعله يشعر بالندم إلى آخر أيّام حياته. وقد بدأ تلك القصيدة بتصوير عذاب غربته وظروف عودته إلى مصر وعبّر عن مشاعر الفرحة التي غمرته عندما شاهد وجوه المصريّين، ثمّ أعلن عن استعداده لخدمة ركاب السلطان، إن كفّوا عنه تتبّعات رجال الشرطة.

ومن ثمّ تمكّن بيرم من الاستقرار بمصر وذاع صيته بالأغاني الشهيرة التي كتبها لأمّ كلثوم ولغيرها من الفنّـانين. وفي سنة 1954 نال الجنسيّة المصريّة ثمّ نال جائزة الدولة التقديريّة وتوفّي سنة 1961.

تلك هي الظروف التي دوّن فيها بيرم حلقة أخرى من مذكّراته الموسومة بـ "مذكّراتي". وقد نشر ذلك النصّ ضمن كتاب "مذكّراتي والديوان الأوّل" فكان مكمّلا للمذكّرات السابقة التي تعلّقت بفترتي الشباب والكهولة.

وإذا ما تأمّلنا في فاتحة ذلك النصّ التي اضطلعت بوظيفة نصيّة مصاحبة وفي هوامشه لاحظنـا أنّه ألّفه بمدينة (حلوان) سنة 1961 عندما لاح له شبح الموت وأنّه أعرب عن توسّله به لتقديم صورة إجماليّة عن حياته.

ولهذا فإنّنـا نذهب إلى أنّ الغربة التي كابدهـا بيرم في المنفى واستغلال الصّحف والمجلاّت لقلمه آنذاك والاتهامات التي وجّهها له خصومه إثر مدحه الملك فاروق ومرضه في فترة الشيخوخة واعتراف حكومة جمال عبد الناصر بفضله والشهرة الأدبيّة التي حظي بها قد تفاعلت كلّها لحظة التدوين ولوّنت خطاب تلك المذكّرات بلون مخصوص.

وفي ضوء كلّ هذا تتجلّى لنا قيمة النصوص المصاحبة لمتون تلك المذكّرات ويتأكّد لدينا أنّها تمثّل منفذا أساسيّـا إلى خطابها وتكشف عن علاقة من أهمّ العلاقات التي نسجتها تلك المتون مع غيرهـا من النصوص.

الدرس الخامس:

عتبات "مذكّرات طه حسين"

تمهـيــد:

نشر طه حسين مذكّراته متسلسلة بمجلّة (آخر ساعة) المصريّة من شهر مارس إلى شهر سبتمبر 1955، ثمّ تولّى نشرها سنة 1967 بدار الآداب البيروتيّة تحت عنوان "مذكّرات طه حسين". ولهذا العنوان وظيفة أجناسيّة جليّة، نظرا إلى انطوائه على ميثاق أجناسي كاشف عن مقصديّة المؤلّف الأساسيّة ودالّ على صلة كتابه بجنس المذكّرات. وعلى ذلك الأساس نعتبر أنّه أشار إلى انتماء نصّه إلى الحكي الحقيقي وأثبت تعلّقه بحياته الخاصّة. ومن هنا نقف على الفرق بين موقف طه حسين من هذا الكتاب وموقفه من كتاب الأيّام. ذلك أنّ عبارة "الأيّام" لا تتضمّن ميثاقا أجناسيّا ولا تنمّ بالتالي عن صلته بالحكي الحقيقيّ ولا عن صلته بحياة طه حسين. بل إنّ طه حسين تكتّم في متن كتاب الأيّام عن تلك الصلات تكتّما تامّا، بما أنّه لم يذكر إسم الشخصيّة الأساسيّة التي عاشت الأحداث ولا تاريخ ميلادها ولا أسماء أفراد عائلتها، وفصل فصلا واضحا بين ذاته الخاصّة وذات الراوي وذات الشخصيّة التي عاشت الأحداث. ومن الأمارات الدالّة على ذلك أنّ الراوي استعمل ضمير الغائب في حديثه عن الشخصيّة الأساسيّة استعمالا نفى اتّحاد أعوان السرد في ذلك النصّ وأخفى انتماءه إلى جنس السيرة الذاتيّة.

ولئن استعمل راوي المذكّرات ضمير الغائب في الحديث عن الذات التي عاشت التجربة مثلما فعل في كتاب الأيّام، فإنّه أثبت في عدّة مواطن اسم تلك الشخصيّة إثباتا لا يدع سبيلا إلى الشكّ في أنّ من عاش التجربة هو طه حسين نفسه. بل إنّه أظهر في بعض العناوين الفرعيّة اتّحاد ذات الكتاب/الراوي بالشخصيّة التي عاشت التجربة، رغم محافظته في المتن على ضمير الغائب (أستاذي يدعو عليّ بالشقاء). ومن هنا تعاضد العنوان الرئيسيّ مع المتن على تأكيد تعلّق الأحداث بحياة طه حسين وثبت لدينا انتماء الكتاب إلى الحكي الحقيقيّ المتّصل بحياة المؤلّف. وبذلك توفّرت فيه أهمّ العناصر الضروريّة المشتركة بين النصوص المندرجة في حقل المذكّرات. بل إنّ العمليّة القياسيّة البسيطة تؤكّد اتّصال كتاب الأيّـام نفسه بحياة طه حسين، نظرا إلى القرائن الكثيرة التي تظهر أنّ الذّات التي عاشت الأحداث في المذكّرات هي الذّات التي اهتمّ الراوي بها في الأيّام. وفي ضوء كلّ هذا يبدو لنا أنّ الأسباب التي جعلت طه حسين يطمس العلامات

الدالّة على انتماء الأيّام إلى السيرة الذاتيّة ويرفض الاعتراف بانتمائه إلى ذلك الجنس الأدبيّ قد زالت خلال الفترة التي ألّف فيها مذكّراته.

ونحن إن كنّا نجهل الأسباب التي حملت دار المعارف على نشر تلك المذكّرات سنة 1972 تحت عنوان الأيّام (ج3)، ولا علم لنا بدور طه حسين في اختيار ذلك العنوان الجديد، فإنّنا نعتبر أنّ لتلك العمليّة تأثيرا كبيرا في النتائج التي تفضي إليها مقاربة ذلك النصّ مقاربة شعريّة. فالدارس الذي يقرأ نصّ طه حسين في ضوء مصاحباته النصيّة الأولى ويدرجه في سياق نشأته يجد نفسه محمولا على التأثّر بأفق انتظار معيّن. ومهما كانت صلة ذلك النصّ بجنس المذكّرات، فإنّ دراسته لا يمكن أن تثبت انتماءه إلى أدب السيرة الذاتيّة. ذلك أنّ الراوي لم يقف على طفولة الذات التي عاشت التجربة ولم يبسط القول في العوامل المؤثّرة في تكوين شخصيّة تلك الذات خلال فترات هامّة من حياتها. أمّا إذا اعتمدنا المصاحبات النصيّة الثانية واعتبرنا المذكّرات جزءا من الأيّام متعلّقا بالفترة التي عقبت الفترات التي اهتمّ بها الراوي في الجزءين الأوّلين، فإنّ نصّ المذكّرات يصبح منتميا إلى السيرة الذاتيّة، باعتبار أنّ أجزاء الأيّام الثلاثة تشكّل عندئذ سيرة طه حسين الذاتيّة.

اختلاف مذكّرات طه حسين عن الأيّام:

إنّنا نميل إلى قراءة مذكّرات طه حسين في ضوء العنوان الرئيسيّ الأوّل الذي اختاره المؤلّف، لأنّنا على يقين من أنّ قراءته باعتباره جزءا من الأيّام تحجب أبرز خصائصه. فكتاب المذكّرات يختلف –حسب رأينا- اختلافا جوهريّا عن كتاب الأيّام، إذ كشف متنه عن أنّ الذي عاش الأحداث هو طه حسين. أمّا الهوامش فمنها ما تضمّن ميثاقا أجناسيّا صريحا دالاّ على انتماء ذلك الكتاب إلى جنس المذكّرات، ومنها ما تضمّن العناوين الفرعيّة التي وسمت فصول الكتاب كلّها.

ولهذه العناوين الفرعيّة وظيفة نصيّة مصاحبة هامّة، ذلك أنّها نمّت –هي أيضا- عن اختلاف كتاب المذكّرات عن كتاب الأيّام. فالجزء الأوّل من الأيّام اشتمل على عشرين فصلا مثل الجزء الثاني ومثل كتاب المذكّرات. إلاّ أنّ فصول الأيّام وردت خالية من العناوين، في حين أنّ طه حسين نفسه هو الذي وضع العناوين الفرعيّة لفصول مذكّراته، بما أنّه استعمل ضمير المتكلّم المحيل على ذاته في قسم من تلك العناوين (المرأة التي أبصرتُ بعينيها).

ولئن كان لتلك العناوين وظيفة غرضيّة متمثّلة في الإشارة إلى محتويات الفصول فمنها ما كان عنوانا حرفيّا: أي دالاّ دلالة صريحة على محتوى الفصول (طلبت تأجيل الامتحان

للزواج) ومنها ما لمّح إلى المحتوى تلميحا لتشويق القارئ (كيف سقطت في امتحان العالمية). وجميع تلك العناوين الفرعيّة تعتبر عناوين مختلطة، لأنّ كلّ عنوان منها قد عيّن رقم الفصل المتعلّق به وأشار إلى محتواه في الآن نفسه. وبذلك يتّضح أنّ الراوي اهتمّ في كلّ فصل بمسألة مخصوصة، بقطع النظر عن النظام الزمني الذي أخضع له العلاقة الرابطة بين الفصول.

عوامل كتابة طه حسين عن ذاته:

إنّ الناظر في مؤلّفات طه حسين يلاحظ أنّه شرع منذ سنة 1929 في نشر بعض الكتب المتّصلة بحياته الخاصّة، وكان آخرها كتاب المذكّرات المنشور سنة 1967. ففي سنة 1929 نشر الجزء الأوّل من الأيّام ثمّ نشر سنة 1933 كتابا بعنوان "في الصيف" وخلال سنة 1935 نشر كتابا بعنوان "أديب". أمّا الجزء الثاني من كتاب الأيّام فقد نشره سنة 1939.

والباعث على اهتمام طه حسين في جميع تلك الكتب بحياته الخاصّة بصورة صريحة أو خفيّة هو إظهار ملامح القطيعة بينه وبين مجتمعه واتّهام المتحاملين على مواقفه الفكريّة والافتخار بقدرته على تحدّي العقبات وتحقيق ما لم يحقّقه المبصرون. ذلك أنّ علاقاته ببيئته توتّرت خلال طور دراسته بالأزهر ثمّ بدأت في التعقّد منذ أن نشر كتابه "في الشعر الجاهلي"، ذلك الكتاب الذي ولّد قضيّة شغلت المجتمع المصري كلّه وأجّج لهيب الصراع بين طه حسين وخصومه.

فقد انتسب طه حسين إلى الأزهر سنة 1902 وقضى به ثمانية أعوام من دون أن يحرز على شهادة العالميّة، نظرا إلى أنّ حدّة علاقاته بالشيوخ جعلت البعض منهم يتآمر على إسقاطه في الامتحان حسب قوله. وخلال تلك الفترة تأسّست الجامعة الأهليّة بمصر فكان طه حسين يختلف إلى دروسها مساء وإلى دروس الأزهر صباحا. وبعد أن ناقش رسالة عن أبي العلاء المعرّي سنة 1914 بالجامعة الأهليّة سافر إلى فرنسا حيث أحرز على الإجازة في التاريخ سنة 1917 وعلى دكتوراه جامعة برسالة متعلّقة بفلسفة ابن خلدون الاجتماعيّة. وفي سنة 1919 أحرز على دبلوم الدراسات العليا وبدأ يفكّر في إعداد رسالة دكتوراه دولة، لكنّ الجامعة المصريّة لم توافقه على ذلك، نظرا إلى ضعف رصيدها المالي. وهكذا رجع طه حسين إلى مصر متأثّرا بالفكر الغربي تأثّرا واضحا، ومعتزّا بتخرّجه من الجامعة الفرنسيّة اعتزازا قويّا، وبدأ حياته الوظيفيّة منذ سنة 1919.

فقد اضطلع بتدريس التاريخ اليونانيّ القديم، ثمّ تولّى تدريس الشعر الجاهليّ معتمدا طريقة الشكّ المنهجيّ التي تغذّي بها في الجامعة الفرنسيّة ونشر تلك الدروس سنة 1926 ضمن كتاب بعنوان "في الشعر الجاهلي". إلاّ أنّ ذلك الكتاب أحدث ضجّة تجاوزت المجال الفكري إلى الحقل الاجتماعي وأذكتها النزعات الدينيّة المتزمّتة والخلافات السياسيّة الحادّة، ممّا جعل مجلس النوّاب يتعرّض لتلك المسألة أكثر من مرّة.

ولا بدّ من الوقوف على انتماءات طه حسين السياسيّة لفهم مسيرة حياته المتقلقلة وحدّة لهجته النقديّة، ذلك أنّه ساند في بداية حياته حزب الأمّة الإقطاعي الرجعي الموالي للقصر. وعندما اضمحلّ ذلك الحزب والتحق أعضاؤه بحزب الأحرار الدستوريّين وقف طه حسين في صفّهم. ولعلّ مرجع ذلك ميل بعض أعضائه إلى الفكر الغربي التحرّري وعلى رأسهم لطفي السيّد وعدد من أفراد عائلة عبد الرزاق.

ولمّا كان البرلمان المصري سنة 1926 بيد حزب الوفد الذي ترأّسه سعد زغلول، فإنّه وقف ضدّ طه حسين في قضيّة كتابه، نظرا إلى العداء القائم بين حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريّين. إلاّ أنّ عبد الخالق ثروت رئيس الوزراء المنتمي إلى حزب الأحرار الدستوريّين هدّد بالاستقالة إن تعرّض طه حسين لسوء. وقد شغلت مسألة الكتاب شيوخ الأزهر، إذ طالبوا النائب العموميّ بتقديم طه حسين للمحاكمة لأنّه كذّب حسب قولهم القرآن صراحة وطعن فيه على النبيّ.

وهكذا ضاق الخناق على طه حسين فسافر إلى فرنسا بإيعاز من صديقه لطفي السيّد، وبها ألّف الجزء الأوّل من الأيّام ونشره متسلسلا بجريدة الأهرام من شهر سبتمبر 1926 إلى شهر جويلية 1927 ليتّهم مؤسّسات التعليم التقليدي والعقليات المتحجّرة المهيمنة على الشعب المصريّ ويدين بصورة غير مباشرة أولئك الذين أدانوه بالكشف عن أنّ التعليم الذي تلقّوه لا يمكن أن يفضي إلاّ إلى مظاهر الجهل والتحجّر التي أعربوا عنها إثر اطّلاعهم على كتابه.

وليس من شكّ في أنّ شعور طه حسين بالقهر الفكري وبالظلم قد عمّق اقتناعه بأنّ تلك البيئة التي تسبّبت في إصابته بالعمى ولم تقدّره حقّ قدره في طور الشباب تحاول الآن قهره وإلجام صوته التحرّري. ولذلك أصبح متّهما لاذع اللّهجة، وإن تظاهر بأنّه غريب عن الأحداث التي يرويها.

ورغم أنّ المسألة انتهت بحجز الكتاب ومطالبة مؤلّفه بحذف الفقرات التي أثارت حفيظة علماء الأزهر، فإنّ مظاهر الصراع بين طه حسين ومجتمعه تواصلت تواصلا كاشفا عن اختلاف الرأي بين خرّيجي الأزهر وخرّيجي التعليم العصري. ففي سنة 1928 أثيرت

قضيّة الكتاب من جديد وشملت المحاضرات التي ألقاها المؤلّف عن القرآن. ولذلك عارضت حكومة الوفد قرار تعيين طه حسين عميدا لكلّية الآداب فاستقال من تلك الخطّة. وخلال سنة 1930 تمّ انتخابه عميدا فشغل تلك الخطّة إلى سنة 1932، ثمّ نقلته الوزارة إلى عمل إداري بسبب وقوفه في صفّ الأحرار الدستوريّين الذين تحالفوا مع حزب الوفد لمعارضة رئيس الحكومة إسماعيل صدقي منشئ حزب الشعب.

ومن أجل ذلك تظاهر الطلاّب وطالبوا بإرجاع طه حسين إلى الجامعة واستقال لطفي السيّد مدير الجامعة من وظيفته. وعندما أثيرت المسألة مرّة أخرى في مجلس النوّاب أحيل طه حسين على التقاعد سنة 1932. وباتّحاد حزب الوفد مع الأحرار الدستوريين تغيّر موقف الوفد من طه حسين، إذ مكّنه من العودة إلى الجامعة سنة 1933، وتمّ انتخابه عميدا سنة 1936 فأصبح من أنصار حزب الوفد البارزين.

ونتيجة لكلّ تلك الخصومات عاد طه حسين إلى مواصلة تأليف الجزء الثاني من كتاب الأيّام وأمعن في اتّهام مؤسّسة الأزهر وشيوخها وفي إدانة بيئته. ولهذا حجب اسمه الخاصّ وأسماء أفراد عائلته ورفض الاعتراف باتّصال حياته الخاصّة بحياة بطل كتابه.

وقد تواصل ارتباط حياة طه حسين بالسياسة، إذ تمّ تعيينه مستشارا لوزير المعارف عندما عاد حزب الوفد إلى الحكم سنة 1942، ثمّ وقع انتدابه مديرا لجامعة فاروق الأوّل بالإسكندرية إلى أن تولّى أنصار سعد زغلول الحكم فأحالوه على التقاعد مرّة أخرى سنة 1944. ومن ثمّ أصدر طه حسين مجلّة "الكاتب المصري" وصرف عنايته كلّها للنهوض بأعبائها إلاّ أنّ حزب الوفد عاد إلى الحكم سنة 1950 فتمّ تعيين طه حسين وزيرا للتربية فدعا إلى نشر التعليم المجاني وتسبّب في تقليص حجم المؤسّسات التعليميّة الدينيّة إلى أن سقط حزب الوفد فانتهت حياة طه حسين السياسيّة والوظيفيّة سنة 1952.

وخلال ذلك الطور انكبّ طه حسين على تدوين مذكّراته ثمّ تولّى نشرها معربا في غضونها عن اسمه الخاصّ إعرابا دلّ على أنّ بطل الأيّام هو طه حسين نفسه.

وقد تعرّض في ذلك الكتاب الأخير لبعض جوانب حياته بالأزهر وبالجامعة المصريّة وصوّر ظروف التحاقه بالجامعة الفرنسيّة وإحرازه على شهائده العلميّة وأظهر المبادئ التي تحكّمت فيه وقادت خطاه منذ رجوعه إلى مصر.

وفي ضوء هذه العناصر النصيّة المصاحبة يتسنّى للدارس الوقوف على العوامل التي تسبّبت في نشأة مذكّرات طه حسين وفهم جوهر خطابها وتبيّن مقاصد مؤلّفها عندما

قال في الفصل الأخير: "وكان صاحبنا يرى الحيدة في ذلك الوقت جبنا ونفاقـا. والمهمّ أنّه غرق في السياسة أو احترق بنارها، ولم يكن له بدّ من أن يحتمل تبعات هذا الغرق أو هذا الحريق. وهل كانت حياته كلّها منذ تلك الأيّام إلاّ نتيجة طبيعيّة لإقدامه على السياسة وغرقه فيها واصطلائه بنارها".

القسم الثالث:

العلاقة النصّيّة الجامعة

الدرس السادس:

صلات مذكّرات الشابي بجنسها الأدبيّ

تمهـيـد :

الحدود الفاصلة بين السيرة الذاتية والمذكّرات واليوميّات:

اعترف الكثير من المنظّرين بعجزهم عن وضع تعريفات جامعة مانعة للأجناس الأدبيّة المتّصلة بالحكي الحقيقي المحتفل بحيوات الكتّاب، إذ أنّ النصوص المنتمية إلى تلك الأجناس الأدبيّة تختلف من ناحية عن بعضها بعض اختلافا واضحا، وتشترك من ناحية أخرى مع طبقات النصوص المنتمية إلى أجناس مجاورة لها في التعلّق بجوانب متماثلة.

إلاّ أنّ التوسّل بعمليّات قياسيّة يفضي بنا حتما إلى استخلاص الأركان الثابتة والأركان المتحوّلة في النصوص المنتمية إلى جنس من الأجناس الأدبيّة ويهدينا إلى العناصر الأجناسيّة التي شكّلت جنسها الأدبيّ وإلى العناصر الأجناسيّة التي اضطلعت بوظيفة مصاحبة لها. ومن ثمّ يتسنّى لنا ضبط الجنس الأدبي الرئيسيّ الذي انتمت إليه مدوّنتنا وإبراز مدى توصّل مؤلّفيها إلى تحقيق المقصديّات الأجناسيّة التي أعلنوا عنها في غضون المتون أو في هوامشها.

فالسيرة الذاتيّة والمذكّرات واليوميّات تشترك في اتّحاد أعوان السرد وفي تعلّق محتويات كلّ نصّ منتم إلى جنس من أجناسها الأدبيّة إن جزئيّا وإن كليّا بحياة مؤلّفه. غير أنّ نصوص السيرة الذاتيّة تتميّز من نصوص الجنسين الآخرين تميّزا قاد فيليب لوجون (Philippe Lejeune) إلى وضع تعريف دقيق لها بقوله إنّ السيرة الذاتيّة "هي قصّة نثريّة استرجاعيّة، يروي فيها شخص حقيقيّ معيّن قصّة حياته، مسلّطا الضوء على حياته الشخصيّة، وخاصّة على تاريخ تكوين شخصيّته". ومن ثمّ، فإنّ النصوص المنطوية على تلك الخصائص قد تنفتح على خصائص اليوميّات أو المذكّرات انفتاحا لا يخرجها عن حدود السيرة الذاتيّة. كما أنّ احتفال المذكّرات أو اليوميّات بقسم من تلك الجوانب لا يدرجها في حقل السيرة الذاتيّة.

ولهذا فإنّ التحديدات العامّة التي وضعها بعض الدارسين لإبراز الحدود الفاصلة بين السيرة الذاتيّة والمذكّرات واليوميّات ليست تحديدات صارمة، ولا تدلّ في جميع الأحوال على أنّ النصوص المتّصلة بها تخضع لها خضوعا تامّا. فقد ذهب أولئك الدارسون إلى أنّ إخبار المؤلّف عن الأحوال التي كان عليها يدرج نصّه في حقل السيرة الذاتيّة وإخباره عمّا شاهد وسمع أو عمّا أتى وقال يدرج نصّه في حقل المذكّرات. أمّا اليوميّات الخاصّة، فإنّ مؤلّفها يدوّن فيها حسب قول جورج ماي ما وقع له في الفترة القصيرة التي تفصله عن فترة التدوين السابقة، والحال أنّ نصوص السيرة الذاتية واليوميات الخاصّة قد تحتفل بتلك الجوانب المميّزة للمذكّرات، من دون أن يسفر ذلك عن انتمائها إلى جنس المذكّرات.

إنّ اعتماد التعريف الذي وضعه Philippe Lejeune للسيرة الذاتيّة يساعد على ضبط الحدّ الفاصل بين ذلك الجنس الأدبيّ ونصوص المذكّرات المتعلّقة بشخصيّات الكتّاب، أمّا الوقوف على الخصائص المميّزة لجنس اليوميّات، فإنّه يدلّ على الحدّ الفاصل بينها وبين جنس المذكّرات. ومن هنا تتجلّى العناصر الأجناسيّة المهيمنة على تلك الأجناس الأدبيّة الثلاثة وتبرز العناصر التي اقتصرت على الاضطلاع بوظائف مصاحبة لها. فالكاتب الذي يدوّن يوميّاته الخاصّة يوما بيوم كثيرا ما تقوده الحالة الوجدانيّة أو الفكريّة المتحكّمة فيه لحظة التدوين إلى تذكّر مواقف أو أحداث أو انطباعات ماضية تذكّرا يلوّن خطابه بلون ذاتيّ.

ولهذا لا تتّسم نصوص اليوميّـات بسمات شكل أدبي مخصوص ولا بمحتوى مضبوط مثلما ذهب إلى ذلك Maurice Blanchot في كتابه الموسوم بـ "Le livre à venir"، وإنّما تطول حلقات اليوميّـات حينا وتقصر حينا آخر، وتشفّ عن الأحلام والخيالات والأفكار والانطباعات والأحداث المعيشة فتختلف من جرّاء ذلك محتوياتها اختلافا بارزا.

إلاّ أنّ خضوع حلقات اليوميّات لجدول زمنيّ تعاقبيّ وتعلّق محتوى كلّ حلقة منها بما عاشه المؤلّف أو بما خامره من أفكار أو خيالات أو هواجس خلال يوم التدوين يدلاّن ضمنيّـا على الميثاق الأجناسيّ الذي عقده مع القارئ المحتمل.

I ـ مذكّرات الشابي وفنّ اليوميّـات:

إذا ما قرأنـا نصوص أبي القاسم الشابي التي اشتمل عليها كتابه الموسوم بالمذكّرات اتّضح لنا أنّ جميع تلك النصوص نهضت على الأركان الأساسيّة المميزة لجنس اليوميّات، رغم انفتاحها –أحيانا- على العوامل التي أثّرت في طفولته وعمّقت شعوره بالغربة

وبلورت المنزع الرومانسي الذي لوّن أشعاره. وينبغي ألاّ يغرينا استعماله عبارة مذكّرات بنسبة نصوص يوميّاته إلى ذلك الجنس الأدبيّ، إذ أنّ الشابي لم يستعمل تلك العبارة بمعناها الاصطلاحي، نظرا إلى أنّ مسألة الأجناس الأدبيّة والمصطلحات الدالّة عليها لم تستقطب اهتمامه ولا اهتمام سائر الأدباء التونسيّين في الثلاثينات.

فقد وسم الشابي حلقات كتابه بعناوين فرعيّة دالّة على تواريخ أيّام التدوين، كاشفا لنا بذلك عن أنّه اتّبع جدولا زمنيّا تعاقبيّا، ولم يخلّ به إلاّ في أيّام معدودة. وبالنظر في متون تلك الحلقات نلاحظ أنّ كلّ حلقة منها تعلّقت بالأفكار والخيالات والهواجس التي خامرت الشابي لحظة التدوين نفسها. وقد أعربت بعض أقسام المتن عن مقصديّة الشابي الأجناسيّة إعرابا لا يدع سبيلا إلى الشكّ في أنّه هدف إلى تدوين يوميّاته الخاصّة، ذلك أنّه ترجم عن تعلّقه بتخصيص كلّ حلقة من حلقات كتابه لرسم أهمّ ما شغله خلال يوم التدوين بالذات، ولم يحد عن ذلك إلاّ لأسباب قاهرة.

وممّا يثبت حرص الشابي على تدوين يوميّاته يوما بيوم أنّه لم ينقطع عن التدوين خلال الأيّام التي كانت أحداثها –حسب قوله- لا تستحقّ الذكر والتعليق، بل إنّه اقتصر في يوم 14 جانفي 1930 على الإشارة إلى توعّك مزاجه وفتور بدنه ليبرّر قصر اليوميّة التي دوّنها قبيل النوم.

والحقّ أنّ المقاطع السرديّة التي استهلّ بها الشابي ثلاث يوميّات توهم باندراج تلك اليوميّات في حقل المذكّرات، نظرا إلى انقطاع صلة تلك المقاطع بذاته لحظة التدوين وتعلّقها بما شاهده وسمعه أو بما فعله وقاله في أيّام سابقة. إلاّ أنّ الأحداث التي عاشها الشابي خلال يوم التدوين ذاته هي التي قدحت أفكاره آنذاك وأكّدت انتماء تلك النصوص إلى جنس اليوميّات. فقد استهلّ الشابي يوميّة الثاني من جانفي 1930 بقوله: "هي صور سخيفة من رسوم الحياة. وهل في الحياة غير السّخف. ولكن حتّى في سخافات الحياة ما يحزن ويقبض على القلب. عرفته صديقا، أبيّ النفس [...] وغبت عن الحاضرة حينا من الدهر فسمعت أنّ الرجل قد جنّ واختلط في عقله [...].

ومرّت أيّام لم أره خلالها.

وفي صبيحة اليوم بينما كنت نائما وإذا بالباب يطرق [...] ولمّا فتحت الباب سمعت صوتا خشنا لا عهد لأذنيّ به يقول: السلام عليكم. وعلى إثره دخل صديقي المجنون..."

وقد نحا الشابي ذلك المنحى نفسه في يوميّة 7 جانفي 1930، ذلك أنّه استهلّها بالحديث عن شعوره بالغربة حديثا دالاّ على شدّة تأثّره بالمنزع الرومنسي، إذ قال: " أشعر الآن

أنّي غريب في هذا الوجود وأنّني ما أزداد يوما في هذا العالم إلاّ وأزداد غربة بين أبنـاء الحياة [...]".

وبعد أن أبان عن مظاهر القطيعة بينه وبين مجتمعه صوّر لنا اللّقاء الذي جمعه بأديبين تونسيّين تصويرا كاشفا عن أنّ ذلك اللّقاء هو الذي ولّد تلك الآراء خلال ذلك اليوم بالذّات. وتبدو لنا تلك الظاهرة نفسها في يوميّة التاسع من جانفي سنة 1930.

وينبغي ألاّ يذهب بنا الظنّ إلى أنّ تكتّم الشابي عن ذكر أسماء بعض الشخصيّات وصمته عن الإشارة إلى أحداث هامّة يضعفان صلة نصوصه بفنّ اليوميّات الخاصّة التي يتوجّه فيها الكتّاب بالدرجة الأولى إلى ذواتهم، خلافا للمذكّرات التي يعدّها المشاهير للنشر. فكتّاب اليوميّات الخاصّة يفكّرون بالضرورة في القارئ المحتمل الذي سوف يطّلع عليها خلال حياتهم أو بعد موتهم، سواء منهم من يتولّى نشرها بنفسه أو من يعمد إلى إخفائها.

ولئن تميّزت السيرة الذاتيّة والمذكّرات بالخضوع لدافعي التبرير والشهادة، فإنّ خضوع يوميّات الشابي لذينك الدافعين لا ينأى بها عن جنسها الأدبيّ، نظرا إلى أنّه شرع في تدوينها عندما ذاع صيته وتعالت أصوات المندّدين بكتاباته الأدبيّة.

ورغم كلّ هذا، فإنّ بعض اليوميّـات تدفعنا إلى الشكّ في أنّ الشابي دوّنها فعلا خلال الأيّام التي نصّ عليها في الهوامش. من ذلك أنّه أبان في يوميّة 8 جانفي عن رغبته في كتابة دراسة نقديّة عن كتاب "تراجم مصرية وغربيّة"، وختم نصّه بقوله: "ولكنّني لم أكتبها لحدّ الآن، ولا أدري هل أنا كاتبها أم لا؟".

وبمقارنة يوميّات الشابي بعضها ببعض تتجلّى لنا تناقضات باعثة على الشكّ في تواريخ تدوين قسم منها تشكيكا محيّرا. من ذلك أنّه اعترف في يوميّة 13 جانفي بأنّه لم يلق محاضرته عن كتاب "الأدب العربي في المغرب الأقصى"، ثمّ ذكر في يوميّة 20 جانفي أنّ تلك المحاضرة أثارت ضجّة، رغم أنّ نصوص يوميّاته تتضمّن عدّة قرائن دالّة على أنّه لم يلق تلك المحاضرة أصلا.

فقد أثبت الشابي أنّ النادي الأدبي بجمعيّة قدماء الصادقيّة دأب على الاجتماع أيّام الاثنين، ثمّ ذكر في مذكّرة 13 جانفي أنّه ذهب صحبة زين العابدين السنوسي ومصطفى خريّف إلى ذلك النادي لإلقاء محاضرته فلم يجدوا "أحدا هناك". وفي يوميّة يوم الاثنين الموالي نصّ الشابي على أنّه ذهب إلى النادي الأدبي فوجده مغلقا، ثمّ استطرد قائلا إنّهم اتّفقوا على إلقاء المسامرات أيّام الجمع وقد قام "كلّ منّي والأخ

عثمان الكعّاك بمحاضرة: واحدة منهما تعرّضت لنقد كتاب "الأدب العربي في المغرب الأقصى [...] وقد أغضبت كلّ منهما طائفة من الناس". أمّا في يوميّة 27 جانفي فأكّد أنّه وجد النادي مغلقا ذلك اليوم، كما وجده مغلقا يوم الاثنين السابق، مشيرا بذلك إلى أنّ موعد اجتماع النادي هو أيّام الاثنين.

فإذا كان الشابي قد دوّن يوميّاته يوما بيوم حقا، فكيف يتناقض كلّ هذا التناقض في مسألة متعلّقة بأحداث ذات صلة متينة بحياته الأدبيّة. وممّا يزيد في حيرة الدارس أنّ غياب الجمهور عن تلك المحاضرة قد أثار نقمة الشابي وولّد قصيدته الموسومة بالنبيّ المجهول حسب ما ذهب إلى ذلك صديقه زين العابدين السنوسي. وقد وشت يوميّة الثلاثاء 14 جانفي –وهو اليوم الموالي لتاريخ إلقاء المحاضرة- بأنّ الشابي عاش يوما من أحلك أيّامه تأثّرا -دون ريب- بعزوف الجمهور عن محاضرته.

وهكذا يتجلّى لنا أنّ النصوص التي دوّنها الشابي باعتبارها مذكّرات قد انطوت على بعض سمات ذلك الجنس الأدبيّ واحتفلت ببعض خصائص السيرة الذاتيّة وتضمّنت متناصّا قرآنيّا واستعارت أحيانا المعجم الرومنسي الذي لوّن قصائده، ولكنّها نهضت على الأركان الأساسيّة المميّزة لجنس اليوميّات نهوضا لا يدع سبيلا إلى الشكّ في أنّ خصائص اليوميّات هي الخصائص المهيمنة على تلك النصوص.

وإن دلّت بعض الأمارات على أنّ الشابي لم يدوّن قسما من تلك النصوص خلال الأيّام التي ضبطها في الهوامش فمرجع ذلك فيما نقدّر هو إمّا إعادة صياغة بعض النصوص وإمّا خطأ ناجم عن سهو الشابي نفسه أو عن تصرّف مَن أعدّ تلك النصوص للنشر. فاليوميّات التي صوّر فيها الشابي ما عاشه –فعلا- خلال يوم من الأيّام ثمّ ختمها بملاحظات دالّة على تأخّر زمن الكتابة عن زمن التجربة، من نوع "ولكنّني لم أكتبها لحدّ الآن" قد تدلّ على أنّ الشابي أعاد صياغة تلك اليوميّات بعد مدّة. أمّا التناقض المتعلّق بتاريخ اجتماع النادي الأدبي وبالضجّة التي أثارتها محاضرته الموسومة بـ "الأدب العربي في المغرب الأقصى" فلعلّه ناجم عن الخلط بين محاضرة "الخيال الشعري عند العرب" التي ألقاها فعلا وأثارت موجة من الانتقادات ومحاضرة "الأدب العربي في المغرب الأقصى" التي لم يتمكّن من إلقائها.

فنحن نعرف أنّ الشابي ألقى المحاضرة الأولى يوم 20 شعبان سنة 1348 للهجرة أي سنة 1929، فإن كان يوم 20 شعبان يوم جمعة فمعنى ذلك أنّ الشابي أو الناشر قد خلطا بين المحاضرتين خلطا أفضى إلى ذلك التناقض، وإن كان الأمر على خلاف ذلك فنحن لا نرى وجها لتبرير تلك الظاهرة.

الدرس السابع:

II ـ صلات "مذكّرات محمود بيرم التونسي" بجنسها الأدبيّ :

تمـهـيـد:

إنّ الواقع المعيش الذي تتعلّق به المذكّرات يمرّ بتحوّلات جوهريّة متتالية، إذ أنّه يخترق ذوات الكتّاب عبر مصفاة الذاكرة في لحظة من اللحظات المنفتحة على شبكات من المؤثّرات، ثمّ يخضع لتحوّل ثان عندمـا تعمد الذات الراوية إلى التبويب والتصنيف وفق خطّة مرسومة.

وفي نهاية المطاف يتلقّى القارئ نصّا أدبيّا يعرض واقعا "من ورق" لا مجال في تأويله للبحث عن تطابق بين الواقع المعيش والخطاب الأدبي. ولهذا، فإنّ نصوص بيرم التي اعتبرت من أدب المذكّرات تتباين في درجة صلتها بحياة صاحبها، نظرا إلى تنوّع خصائصها الأجناسيّة واختلاف عوامل نشأتها وتواريخ تأليفها.

1) مذكّرات مرسيليا وفنّ المذكّرات:

اتّخذ بيرم التونسي إقامته بمرسيليا موضوعا لمذكّراته التي نشرها بجريدة الزمان التونسيّة. ذلك أنّه مال في المذكّرات الموسومة بـ "مرسيليا" إلى وصف معالم تلك المدينة الفرنسيّة وأحيائها وشواطئها ونواديها ومنتزهاتها من دون أن يربط بين تلك الجوانب أو يخضعها للبناء التسلسليّ الذي يخضع له أدب الرحلة. كما أنّه أوغل في تحليل طبائع السكّان وعاداتهم ومقوّمات دينهم ومواقفهم من الأجانب، وأبدى إلمامه بأوضاع الشرقيّين بفرنسا واستخلص أسباب غربتهم وعوامل تخلّفهم عن الأروبيّين.

أمّا الخطّة التي خضعت لها تلك المذكّرات فقد هدفت إلى ترسيخ تلك الصورة لدى القارئ وشدّه إلى حلقات المذكّرات شدّا كشف عن رغبة بيرم في لفت انتباه القارئ التونسي إلى الغنم الذي غنمه عندما أقام في مجتمع غربيّ تمكّن من صنع أسطورة تفوّقه وتمدّنه.

ولهذا، فإنّنا نعتبر أنّ تلك المذكّرات قد تولّدت عن شعور بيرم زمن التدوين بامتلاء ذاته وانتشائه بثراء تلك الخبرة واعتزازه بضروب المعارف التي ميّزته من سائر الشرقيّين المقيمين بفرنسا. ولا شكّ في أنّ استنجاد جماعة جريدة "الزمان" ببيرم لمواجهة خصومهم قد أذكى نخوته بمنزلته الأدبيّة وعمّق اقتناعه بسلطان قلمه.

والحقّ أنّ الكاتب/الراوي برّر روايته لتلك الذكريات تبريرا حجب الدّافع الأوّل الضمنيّ ودلّ في الآن نفسه على دافع ثان يدعم الدّافع الأوّل دعما خفيّا. فقد ذهب إلى أنّ للقارئ دخلا في توليد تلك الخواطر، إذ قال: "أقمت في مرسيليا خمسة أعوام وكتبت عنها جادّا وهازلا ولا أراني أسأم الكتابة عنها كلّما مرّ ذكرها بخاطري وأحسب القرّاء لا يسأمون ما أكتبه". (ص36) وبهذا يمسي الراوي داخل النصّ حلقة فاصلة واصلة بين الكاتب خارج النصّ والذّات التي عاشت الأحداث. فقد أشهدنا الخطاب على تأثير عوامل النشأة وصورة المتقبّل في توليد تلك الخواطر، مؤكّدا تأثير المتقبّل في رسم خطّة الخطاب. غير أنّ إرضاء الراويّ لأفق انتظار المتقبّل الذي استحضره زمن الرواية يمثّل – في الحقيقة - معبرا لخلب القارئ لأنّ القناع الذي وضعه الكاتب عندما تقمّص دور راو لحياته لا يمكن أن يشفّ بصورة صادقة عن حياة الذّات التي عاشت التجربة ولا يقدّم صورة وثائقيّة عن حياة الكاتب خارج النصّ. فالراوي يسوس الخطاب سياسة تهدف إلى فتن المتقبّل بمنزلة الذّات زمن التجربة وزمن الرواية في الآن نفسه. وبذلك يصبح الدافع الذي ذكره الرّاوي مجرّد معبر لتحقيق الدّافع الخفيّ القادح لذلك الخطاب.

إنّ كاتب هذه المذكّرات قد تقمّص في لحظة من لحظات حياته دور راو استحضر تجربة مرّ بها زمن إقامته بفرنسا، ووشت خطّة الخطاب وانفتاحه على العاميّة التونسيّة بتوجّهه إلى القارئ التونسي بالدرجة الأولى. وبذلك تضافر الفصل الأوّل مع بقيّة الفصول على الإيعاز بأنّ الذّات التي عاشت التجربة ذات خبرت المجتمع الفرنسي ورتعت في ربوع المتعة رتعا نمّ عن تجنّبها ألوان العذاب التي وسمت حياة جلّ الشرقيّين المقيمين بفرنسا. وبما أنّ فنّ المذكّرات ينهض على تطابق الكاتب والراوي والشخصيّة التي عاشت الأحداث، فإنّ انفتاح مذكّرات يبرم على تمجيد الذّات التي عاشت التجربة يرشح بتمجيد ذات الكاتب/ الراوي في الآن نفسه.

وقد نزع خطاب المذكّرات منزع خطاب الرحلة لحجب صورة ذات عاشت منفيّة بصورة "سائح" رشّحته خبرته لإرشاد المتقبّل وإمتاعه بملذّات السياحة. ومن آيات ذلك توجّه الكاتب/ الراوي إلى القارئ في المذكّرة الثانية قائلا: "نعود إلى الشاطئ لنتمتّع بما فيه من مباهج ونتجنّب ما فيه من الشرور. فهناك مطاعم صفّت كراسيها وموائدها قريبا من الأزرق اللّجيّ وبجانبها باعة المحارات والحشرات الصدفيّة والشوكيّة... (مرسيليا2 الزمان 30 ماي 1933).

الكاتـب والمتقبّـل:

إنّ محمود بيرم التونسي قد تقمّص دور راو في بداية إقامته بتونس، واستحضر صورة متقبّل متلهّف على معرفة ماضيه والوقوف على حقيقة شخصيّته. وقد ضغطت صورة ذلك المتقبّل على الراوي فولّدت خطابا نازعا إلى اتّباع خطّة تفتن المتقبّل بذاته المنفتحة على ذات الكاتب. ولذلك كتمت المذكّرات –في تقديرنا- مظاهر الشقاء، وعرضت صورة ذات عاشت في فرنسا مثرية تجاربها مغذية ثقافتها ناحتة كيانها. وقد دعم الكاتب/ الراوي تلك الصورة بالتلميح إلى اليسر الذي أحاط بحياته في فرنسا إحاطة مكّنته من الاختلاف إلى النوادي والمنتزهات والمعالم التاريخيّة. ومن أمارات ذلك إشارته إلى أنّه دخل مطعما يقف على أبوابه الخدم ودفع صحبة زميل له "نحو مائتي فرنك في أكلة"، والحال أنّنا نجد راوي مذكّرات المنفى يصرّح بأنّه كاد "يلمس السماء فرحا" عندما تسلّم من مكتب التشغيل تذكرة القطار وفوقها خمسة فرنكات لنفقة الطريق (مذكّراتي، ص93).

وقد راوح الراوي بين وصف الأحياء المشرقة والأحياء القاتمة مراوحته بين إبراز السلوك الحضاريّ وأعمال العصابات ليطبع حديثه بطابع موضوعيّ. غير أنّ ذلك الخطاب يفضح حرص الراوي على إقناع المتقبّل بأنّ الذّات التي عاشت تلك التجارب قد اختلطت بجميع الطبقات وعاشرت مختلف الأوساط.

وهكذا اتّصلت تلك الفصول بفنّ المذكّرات، إذ أفاد فيها الكاتب/الراوي من تأخّر زمن الحكي عن زمن التجربة إفادة مكّنته من تبويب الذكريات وانتقاء ما يخدم خطّته، وتوصّل إلى التفنّن في الوصف والتحليل وبلورة خلاصات عامّة. ومن ثمّ يتجلّى الفرق بين مستوى الخبر ومستوى الخطاب وتتأكّد –في تقديرنا- الأهميّة المطلقة لخطاب المذكّرات.

والحقّ أنّ المتعة كانت من العوامل المؤثّرة في خطاب المذكّرات، إذ بدت لذّة التذكّر قادحة للذّة رواية الذّكريات ودافعة إلى إمتاع المتقبّل والتدرّج في إثارة شهوته. ومن أمارات ذلك توجّه الكاتب/الراوي إلى القارئ بقوله: "وإذا أردت أن يذهب عقلك تماما فاقصد في الصيف الحمامات البحريّة "كاتالان" و"روكاسبلان" فهنّ هناك متجرّدات تماثيل من صنع المثال الأكبر سبحانه وتعالى" (مذكّرات المنفى، ص79).

غير أنّ تواصل فعل هذا الدافع طوال خمسة أشهر في حلقات كُتبت بتونس وبها نشرت يشهد بأنّ ذلك الدافع المعلن يخفي دافعا مكتوما ويدعمه في ذات الوقت. فخطاب المذكّرات ينزّل الكاتب/الراوي منزلة سائح غنم من ألوان الحياة المشرقة في فرنسا وحرص على إمتاع القارئ وإثارة شهوته إثارة تفتنه بمكانته المرموقة. وقد تضافر التفنّن الأسلوبيّ والمنهج العلمي وضروب الدعابة في الهدي إلى تلك المكانة والإشادة بها.

ويبدو أنّ الكاتب/الراوي قد أدرك أنّ الإقامة بمرسيليا لا ترقى في نظر المتقبّل إلى درجة الإقامة بباريس فأضاف إلى تلك الحلقات السابقة حلقة عن ذكرياته بالعاصمة الفرنسيّة دلّ بها على أنّ صلته بها لا تقلّ متانة عن صلاته بمرسيليا. وقد سلك خطاب هذه المذكّرة خطّة تغذّي متعة المتقبّل وتفتنه بشخصيّة تلك الذات التي توصّلت إلى الغوص في أعماق الوسط الباريزي.

أجناسيّة "مذكّرات مرسيليا":

إذا ما قرأنا متن النصوص الموسومة بمرسيليا في ضوء هوامشها أدركنا أنّ بيرم التونسي نشر تلك النصوص المتعلّقة بإقامته في فرنسا عندما تولّى رئاسة تحرير "الزمان". وينطوي النصّ الأوّل من تلك النصوص على مقطع له وظيفة نصيّة مصاحبة، إذ أعلن عن المقصديّة الأجناسيّة التي حرص الكاتب الراوي على تحقيقها، ممّا يُغري بإدراج تلك الحلقات في جنس المذكّرات.

ورغم أنّ بيرم التونسي لم يكشف في تلك النصوص عن حياته الخاصّة في فرنسا إلاّ فيما ندر، فإنّ إطنابه في الحديث عن الوسط الفرنسي يظهر عاملا من العوامل الأساسيّة التي أثّرت في حياته الاجتماعيّة وغذّت فكره ووجدانه. ويكتسي خطاب تلك المذكّرات أهميّة بالغة، لأنّ مظاهر الحذف والتلخيص والإطالة والتهكّم والتعليق والتبرّم تكشف كلّها عن الأثر الذي تركته تلك الذكريات في نفسه وتدلّ على المقاصد التي هدف إليها بتدوين تلك المذكّرات.

الدرس الثامن:

2) مذكّـرات المنفى ومذكّراتي وفنّ المذكّرات :

أ ـ مذكّرات المنفى:

نشر بيرم نصوص مذكّراته المدوّنة بفرنسا منذ سنة 1919 بعد أن أنفق ثلاث سنوات من حياته بتونس حيث نشر مذكّراته الموسومة بـ "مرسيليا". ويمكن تصنيف حلقات "مذكّرات المنفى" إلى مجموعتين مختلفتين، إذ نهج بيرم في النصّين الأوّلين نهج اليوميّـات وتفنّن في توليد مظاهر الدعابة ولم يستعمل فيهما العاميّة التونسيّة. أمّا بقيّة المذكّرات فقد اصطبغت بصبغة قاتمة، وظهرت فيها العامية التونسيّة ظهورا دالاّ على توجّهها إلى قارئ تونسي.

ولئن غابت ملامح المتقبّل التونسيّ في المجموعة الأولى وصمتت بعض حلقات المجموعة الثانية عن ذكر مكان التدوين، فإنّ جميع حلقات "مذكّرات المنفى" قد نُشرت بتونس أوّل مرّة –على حدّ علمنا- وأضحت بذلك منساقة إلى القارئ التونسي خلال مرحلة معيّنة من مراحل إقامة بيرم بتونس.

لقد استهلّ محمود بيرم التونسي المذكّرة الأولى بوضع تاريخ 17 أوت 1919 ونصّ في غضونها على تاريخ 20 أوت 1919. غير أنّ هذين التاريخين الدّالين على يوم الإبحار من الإسكندرية ويوم انتهاء السفرة لا يتعلّقان بزمن التجربة ولا بزمن التأليف. ذلك أنّ بيرما قد نُفي عن مصر يوم 21 أكتوبر 1919 حسب ما أثبته محمد صالح الجابري. ولا يعقل أن يخطئ صاحبنا في تحديد ذلك التاريخ إن كان قد دوّن الأحداث يوما بيوم، ولا يمكن أن تدلّ تلك التواريخ على زمن التأليف بما أنّه دوّن تلك اليوميّة بعد أن قضّى أربعة أيّـام على متن الباخرة "شيلي" حسب ما توحي به بعض الفقرات (مذكّراتي ص ص ،71-78). فالمذكّرة الأولى تعلّقت بالأيّام الأربعة التي قضّاها بيرم على متن الباخرة، ومالت المذكّرة الثانية إلى تصوير ما جرى له عند إرساء الباخرة وقطع الطريق الموصل إلى المدينة. وبذلك لامست هذه المجموعة الأولى حدود اليوميّات رغم إهمال تواريخ التدوين.

مستويات التقبّل :

انتقى الكاتب/الراوي المشاهد المعربة عن انشراحه زمن التجربة وانسياقه إلى الدعابة صحبة ركّاب الباخرة (مذكّرات المنفى، ص1). كما أظهر تهكّمه بالركّاب من خلال وصف سلوكهم الدافع إلى الضحك وتحليل طباعهم وعرض أقوالهم. وبذلك أشهدنا الخطاب

على أنّ الكاتب/الراوي قد تمتّع في المنفى بعرض أطوار السفر تمتّع السيّاح برحلات شيّقة.

وتلك الملامح البادية على الصفحات الأولى التي دوّنها بيرم بالمنفى تترجم عن توجّهه إلى المتقبّل المصري زمن التدوين. وصورة ذلك المتقبّل –فيما نقدّر- ذات وجهين: وجه متشفّ من إقصاء بيرم عن أرض مصر ووجه متعاطف معه في محنته. وقد أثّرت تلك الصورة بوجهيها في الذات الراوية تأثيرا حملها على انتقاء اللوحات الطريفة ووسمها بسمة فكهة. وبذلك هدف الكاتب/الراوي –حسب رأينا- إلى الاستخفاف بالناقمين وامتصاص لوعة المتعاطفين.

ولئن أفضت صورة المتقبّل إلى طبع الخطاب بذلك الطابع لإخفاء آلام الفراق ولوعة النفي، فإنّ ذلك الملمح يدلّ أيضا على أنّ بيرم كان يشعر -وهو في بداية مرحلة النفي- بنوع من الغبطة، إذ أنّه تمكّن –رغم كلّ شيء- من السفر إلى أروبا والإقامة بذلك العالم الذي خلب ألباب الشرقيّين وحدا قوافل الرحلات المتعاقبة إلى ديار الغرب. وتشهد الحلقة الثانية من تلك النصوص بذلك نظرا إلى كشفها عن بهجة بيرم عندما شاهد معالم مرسيليا. فقد قال الراوي "كنت متبهجا عندما اقتربت الباخرة من ميناء مرسيليا ووقفت مع الركّاب أشاهد برج "نوتردام" وقباب "الكاتيدرائيّة" (ص79). وقد أعرب الراوي عن شعوره بالاطمئنان في فرنسا عندما أشار إلى أنّ أعوان الشرطة كانوا "في نهاية الرقّة" (ص79). ونمّ وصفه لجمال المرسيليّات عن بوادر انشراحه عندما أقام بأرض فرنسا.

وتبدو لنا المجموعة الثانية من "مذكّرات المنفى" نازعة منزعا آخر دلّ على إعراض الكاتب/الراوي عن اقتفاء آثار الذّات التي عاشت التجربة، وميله إلى انتقاء فترات متباعدة تشترك في الدلالة على الشقاء والفقر والغربة التي طوّقت حياتها في المنفى. فقد اختار الراوي في المذكّرة الثالثة جملة من المشاهد المصوّرة لألوان العذاب والخوف التي تحمّلها زمن الإقامة بمدينة قرونوبل ليصل إلى أحد المعامل على الساعة الرابعة صباحا خلال فصل الشتاء. وتوّج ذلك بتصوير الفزع الذي استبدّ به عندما حاصرته مجموعة من الكلاب الضخمة في مسلك موحش تراكمت عليه الثلوج. غير أنّ الراوي ختم تلك المشاهد المرعبة بالإشارة إلى تفكّهه زمن التجربة بمرأى قطيع من المواشي (ص ص 83-84) واحتال للاستخفاف بالقارئ. ذلك أنّ الراوي كان مطّلعا وقت التدوين على ما تمخّضت عنه الأحداث خلال تلك الليلة، غير أنّه وظّف فنّيات القصّ إمعانا في التسويف، ثمّ باغت القارئ بخاتمة ساخرة.

إنّ هذا الفصل بين ذات عاشت التجربة وذات تروي الأحداث وتخاتل المتقبّل تترجم عن أنّ الكاتب/الراوي قد توصّل زمن التدوين إلى الانعتاق من قبضة الرّعب التي طوّقت عنقه زمن التجربة. وسواء أدوّن بيرم هذا الفصل بفرنسا ثم أعاد صياغته بتونس أم دوّنه بتونس رأسا، فإنّ العبارات العاميّة الموظّفة تدلّ على أنّه يتوجّه زمن النشر إلى القارئ التونسي في المقام الأوّل.

فاختلاف خطاب هذه السلسلة من المذكّرات عن خطاب السلسلة الأولى التي اتّسمت ببعض خصائص اليوميّـات واضح المعالم. ولا يمكن –في تقديرنا- الوقوف على أسباب ذلك الاختلاف وتبيّن الرسالة التي يسوقها خطاب هذه السلسلة الثانية ما لم نهتد إلى عوامل نشأتها ولم نحّدد صورة القارئ التي تَمثّلها المؤلّف زمن التدوين.

عوامل نشأة مذكّرات المنفى :

انتقى الكاتب/الراوي ألوان القساوة والشقاء والعذاب التي خيّمت على حياته زمن التجربة، وتفنّن في حبك الأحداث وسبر أغوار النفس سبرا هدى إلى وجه الذات التي قصّت ما جرى لها في زمن سابق ووصفت الفضاء المحيط بها وحلّلت نفسيّتها. وإثر ذلك ختم الراوي حديثه بتعليق ساخر بدّد نغمة الأسى التي طبعت الخطاب (ص ص 83-84). وما إقدام بيرم على نشر تلك الفصول التي دوّنها بفرنسا إلاّ شاهد على انعتاقه لحظة النشر من ذلك الخجل الآسر الذي دفعه زمن التجربة إلى ستر فقره وجوعه وحرمانه. بل إنّ ميله إلى قصر مذكّراته على تعرية تلك الجوانب بالذّات، وإيغاله في إظهار بشاعتها يمثّلان أمارة على خضوع خطاب تلك المذكّرات لسلطة عوامل النشأة.

والحقّ أنّه لا بدّ من الفصل بين زمن تدوين تلك المذكّرات وزمن نشرها، نظرا إلى أنّ تبدّل ظروف التقبّل تفضي إلى تغيير خطّة الخطاب أو إلى تغيير دلالته على الأقلّ. وقد وقفنا على دلالات خطاب المجموعة الأولى من "مذكّرات المنفى" عندما بيّنا فعل عوامل النشأة في خطابها زمن التدوين. ولكنّ إقدام بيرم على نشر تلك الصفحات بجريدة "الشباب" خلال مرحلة معيّنة من مراحل حياته بتونس قد تولّد –في تقديرنا- عن تمثّل صورة متقبّل تونسي حجب وجه المتقبّل المصري الذي تمثّله الراوي زمن التدوين. وبذلك تمسي علامات الدعابة والفكاهة البارزة على سطح الخطاب ومظاهر ابتهاج الذات زمن التجربة شاهدة على أنّ صاحب تلك النصوص يحرص على إقناع القارئ بأنّه واجه محنة المنفى بصبر منقطع النّظير.

ولا شكّ عندنا في أنّ صورة المتقبّل المصري قد ساهمت في تكييف خطاب المجموعة الثانية من "مذكّرات المنفى" المدوّنة بفرنسا. ولئن كنّا لا نعرف عدد تلك المذكّرات، فإنّ

انفتاح تلك المجموعة على معاناة بيرم خلال العودة الأولى إلى مصر وإطنابها في تصوير عذاب الإقامة بالمنفى وإشارتها إلى مماطلة صاحب الجريدة المصريّة التي كان يحرّر صفحاتها تشي بخيبة أمل بيرم عند رجوعه إلى مصر، وتبطن نقمته على المتسبّبين في نفيه والمستغلين لقلمه في مصر آنذاك. وما السخرية السوداء التي هدفت إلى تحدّي الشامتين وامتصاص لوعة المتعاطفين إلاّ قناع شفّاف لا يخفي الآلام العاصفة بكيان بيرم زمن التجربة وزمن التدوين في الآن نفسه.

غير أنّ راوي تلك المذكّرات قد استحضر –دون ريب- صورة متقبّل آخر بتونس، ولهذا المتقبّل دخل أساسي في انتقاء الصفحات المنشورة وفي إعادة صياغتها أو في تدوين بعضها بتونس. ذلك أنّ جميع نصوص المجموعة الثانية تفتّحت على العاميّة التونسيّة، رغم أنّ عددا من تلك المذكّرات لمّح إلى زمن تدوينها الأوّل بفرنسا. ولا جدال في أنّ إظهار ذلك الوجه القاتم قد نجم عن توتّر علاقة بيرم –آنذاك- بعدد من التونسيّين. ولذلك التوتّر دخل في رسم خطّة الخطاب ونحت ملامح المتقبّل الذي استحضره راوي تلك المذكّرات.

إنّ الوجه المطلّ علينا من خلال خطاب "مذكّرات المنفى" وجه عامل أقام على هامش المجتمع الفرنسي صحبة المعذبين في تلك الأرض واكتوى مثلهم بنار الغربة وذاق معهم ألوان الخصاصة. ولا شكّ في أنّ الكاتب/الراوي قد أوغل في انتقاء تلك المشاهد القاتمة ليخيّب آمال قارئ بدا له متربّصا به، ذلك أنّ اختيار تلك الزوايا المظلمة ضرب من تحدّي القارئ زمن النشر وإقناعه بأنّ الأشواك المزروعة في طريق الكاتب آنذاك لا يمكن أن تحرّك له ساكنا. ولا يخفى ما وراء هذا التحدّي من نزعة فخريّة تعضد الذات في محنتها وتغذّي طاقات الصبر فيها وتقدح بريق أمل في أفقها. ولذلك بدا الكاتب/الراوي غير مكترث –ضمنيّا- بالعقبات التي واجهته زمن نشر المذكّرات. وآية ذلك أنّه صوّر الأهوال التي واجهته أيّام النفي بفرنسا في أسلوب سرديّ نهض على المخاتلة والتسويف نهوضا كفيلا بتخييب أفق انتظار القارئ.

ومن هنا يتّضح أنّ محمود بيرم التونسي دوّن مذكّراته عن مرسيليا ونشرها بتونس، بعد أن ذاعت شهرته في مصر واحتلّ منزلة هامّة في تونس. ولئن دوّن قسما من مذكّرات المنفى بفرنسا، فإنّه نشر جميع تلك الفصول بعد أن خاض معارك أدبيّة واتّصل بالأوساط الفنيّة والفكريّة والسياسيّة وأصبح من المشاهير. ومعنى هذا أنّه توجّه بنصوصه إلى القرّاء وأطلعهم على ما شاهده وسمعه وعلى أفعاله وأقواله خلال السنوات التي أنفقها بالمنفى الفرنسي ليرسّخ في أذهانهم صورة معيّنة عن مرحلة هامّة من مراحل حياته.

أجناسيّة مذكّرات المنفى:

إنّ عنوان مذكّرات المنفى المشترك ينصّ بصورة صريحة على الميثاق الأجناسي الذي عقده المؤلّف مع القرّاء ويتّفق مع الهامش الذي تضمّن اسم بيرم في الإشارة إلى أنّ بيرم نفسه هو الذي عاش التجربة ثمّ اضطلع بتدوينها. ورغم أنّ بيرم أثبت في النصّ الأوّل تاريخين دالّين على يوم الإقلاع من ميناء الإسكندريّة ويوم انتهاء السفرة وصوّر فيه أطوار تلك السفرة، فإنّ ذلك النصّ والنصّ الثاني المتّسمين ببعض سمات اليوميّات لم ينتميا إلى ذلك الجنس الأدبي ولم يُخرجا –بالتالي- حلقات مذكّرات المنفى عن جنس المذكّرات. فتلك التواريخ لا تدلّ على التزام بيرم باتّباع جدول زمني تعاقبي كما أنّ محتويات ذينك النصّين لا يظهران أنّ بيرم دوّن يوما بيوم ما عاشه من أحداث أو ما تذكّره من أقوال أو ما خامره من أفكار.

ب ـ صلات مذكّراتي بفنّ المذكّرات:

إنّ المذكّرات السابقة المتولّدة عن فترتي الشباب والكهولة قد كمّلت المذكّرات الأخيرة التي دوّنها بيرم في طور الشيخوخة ونزع فيها منزع السيرة الذاتيّة بإقامتها على الأركان العامّة لذلك الجنس الأدبي. واتّصال تلك النصوص بفنّ المذكّرات وفنّ السيرة الذاتيّة ليس أمرا غريبا، ذلك أنّ السيرة الذاتيّة المتولّدة تاريخيّا من المذكّرات لم تحظ –حسب قول-ماي "إلاّ باستقلال ذاتي هشّ لا يعدل ذلك الاستقلال الذي حظي به اسمها". وممّا زاد في اتّسام ذلك النصّ بتلك السمات أنّ بيرم لم يستعمل عبارة مذكّرات بمعناها الاصطلاحي، وإنّما استعملها بمعنى السيرة الذاتيّة الموجزة. وآية ذلك أنّه قال في مستهلّ نصّه: "إنّني أشرح في هذه المذكّرات الإجماليّة صورة ممّا كان يجب أن يكون لي من مذكّرات تفصيليّة". ونتيجة لذلك اتّصل نصّه بالسيرة الذاتيّة، من دون أن ينهض على جميع أركانها فكان أكثر قربا من المذكّرات التي تتعلّق بما أتاه أصحابها من أفعال وما نطقوا به من أقوال.

فقد ألّف بيرم مذكّراته الأخيرة في فترة أزمة لا تقلّ قساوة عن الفترات التي شهدت ميلاد المذكّرات السابقة. ذلك أنّ بعض معاصريه في مصر خاضوا في سيرة حياته وأفرطوا في انتقاد مواقفه السياسيّة انتقادا لاذعا حمله على اتّخاذ المذكّرات وسيلة للحجاج والدّفاع عن النفس. وقد أفضت تلك العوامل إلى صبغ المذكّرات بصبغة جديّة قاتمة وطبعها بطابع تحليلي تقريري قلّص من درجة أدبيّتها. وقد اتّسمت هذه المذكّرات ببعض سمات السيرة الذاتيّة لاتّباعها مسيرة حياة بيرم العامّة من طور الطفولة إلى زمن

التدوين وحرصها على تحليل العوامل المؤثّرة في حياته والمساهمة في تكوين شخصيّته ونحت كيانه.

* * * *

ولكلّ هذا فإنّ حلقات مذكّرات بيرم لا يغني عن بعض، إذ تنير كلّ حلقة من حلقاتها ركنا خاصّا من أركان حياته وتتضافر على نحت ملامح سيرته. غير أنّ تلك الحلقات لا تمثّل وثيقة صادقة عن حياته ولا مرجعا نطمئنّ إليه، إذ أنّها خطاب أدبيّ مطبوع بطابع ذاتي، نتيجة لتأثّر صاحبه بعوامل نشأة متباينة.

الدرس التاسع:

III ـ صلات "مذكّرات طه حسين" بجنسها الأدبيّ:

عقد طه حسين ميثاقا سرديّا مع القرّاء عندما نشر حلقات مذكّراته تحت عنوان "مذكّرات طه حسين"، ولمّح في عدد من عناوينها الفرعيّة إلى تعلّق محتويات تلك الحلقات بحياته الخاصّة. ولتلك العلامات النصيّة المصاحبة دور هامّ في تحديد أفق انتظار القارئ وتوجيهه إلى تلقّي ذلك النصّ باعتباره من قبيل الحكي الحقيقيّ والإقرار بتطابق الشخصيّة التي عاشت الأحداث مع الراوي والكاتب في الآن نفسه.

غير أنّ متن الكتاب يبعث على الشكّ في اتّحاد الكاتب الراوي مع الشخصيّة الأساسيّة، ذلك أنّه أحال على تلك الشخصيّة بضمير الغائب أو بعبارات مماثلة من قبيل "صاحبنا" أو "الفتى" فشابه بذلك نصوص الحكي التخييليّ التي يتولّى سردها راو غريب عن الحكاية.

وبانتهائنا إلى الفصل السابع نجد الفتى يرسل ثلاث رسائل إلى الجامعة الأهليّة المصريّة ويمضيها باسمه الخاصّ، كاشفا –بذلك- عن أنّه هو طه حسين نفسه عندما كان طالبا بتلك الجامعة. ومعنى هذا أنّ طه حسين عاش الأحداث ثمّ تولّى روايتها متحدّثا عن ذاته باستعمال ضمير الغائب. ومن ثمّ يجد القارئ ما يبرّر انخراطه في الميثاق الأجناسيّ الذي عقده الكاتب معه، ويصبح الفرق واضحا بين كتاب الأيّام وكتاب المذكّرات، إذ أنّ المؤلّف أخفى اسم الشخصيّة الرئيسيّة في الأيّام وأظهر انقطاع صلته بها، ونفى انتماء نصّه إلى فنّ السيرة الذاتيّة.

وبناء على اتّحاد اسم المؤلّف واسم الشخصيّة التي تعلّقت بها المذكّرات تنقطع صلات النصّ بالحكي التخييلي ويتأكّد أنّه يحيل على حياة طه حسين نفسه عندما أبان عن إصابته بالعمى وقصّ علينا قصّة زواجه بفتاة فرنسيّة وصوّر لنا علاقاته بشخصيّات حقيقيّة وأشار إلى الفترة التي أنجب خلالها ابنته أمينة.

وليس من شكّ في أنّ الكاتب الراوي عمد إلى استعمال ضمير الغائب في الحديث عن ذاته تيسيرا للمراوحة بين تصوير حياته الماضية وإبداء تعليقاته واستنتاجاته المتّصلة بالأوساط التي اختلط بها أو بالمؤثّرات في تكوينه، بالاستناد إلى درجة وعيه زمن التأليف، وكأنّه ليس طرفا في الحكاية. ولهذا، فإنّ صيغة الغائب –كما قال يحيى إبراهيم عبد الدايم- "قد باعدت خطوات غير قليلة، بينه وبين ذاته على النحو الذي باعد بينه وبينها انصرافه الطويل إلى تصوير شخصيّات بيئته". (ص412).

ولمّا كان ضمير الغائب محيلا على طه حسين نفسه عندما عاش الأحداث، فإنّ خوض الكاتب/الراوي في باطن تلك الشخصيّة لا يدلّ على أنّ رؤيته رؤية من الخلف ولا يخرج النصّ عن حقل الحكي الحقيقيّ، وإنّما يثبت أنّ رؤيته رؤية مصاحبة. أمّا حديثه عن دخائل زوجة الفتى فقد نجم عن اطّلاعه الفعليّ على شخصيّتها، بما أنّه هو الزوج نفسه.

وإذا ما قرأنا متن المذكّرات في ضوء الهامش الدالّ على زمن النشر تجلّى لنا تأخّر زمن النشر عن زمن التجربة وتأكّد لدينا أنّ طه حسين عوّل على الذاكرة في سرد تلك الأحداث. فقد نشرت حلقات المذكّرات سنة 1955، في حين أنّ محتوياتها تعلّقت بحياته بالأزهر وبالجامعة الأهليّة وبسفره إلى فرنسا وبحصوله على الشهائد العلميّة وبانتسابه إلى أساتذة الجامعة المصريّة، وهي أحداث جرت خلال الربع الأوّل من القرن العشرين.

ومن الطبيعيّ ألاّ يحتوي نصّ المذكّرات على جميع ما عاشه طه حسين خلال تلك السنوات الطوال، إذ أنّ الذاكرة لا تسعف بذلك كلّه، وخاصّة لأنّ فصول المذكّرات أظهرت ميل المؤلّف إلى انتقاء فترات منقطع بعضها عن بعض وحرصه على ترتيب محتويات تلك الفصول وفق أغراض مخصوصة. ويكفينا شاهدا على ذلك قوله في نهاية الفصل الموسوم بـ"أساتذتي" "وأمّا الفتى فأزمع أن يتعلّم الفرنسيّة حتّى لا يعود إلى سجن لافونتان، وكانت له في تعلّم هذه اللّغة خطوب أيّ خطوب" (ص71). أو قوله في نهاية الفصل الموالي: "فأقبل على العناية بالدرس وإعداد الرسالة للامتحان وتقدّم لهذا الامتحان وظفر بإجازة الدكتوراه ولهذا كلّه حديث يطول" (ص85).

أجناسيّة "مذكّرات طه حسين" :

لقد تعاضد المتن مع الهوامش الحافّة به على تأكيد انتماء تلك النصوص إلى الحكي الحقيقيّ وإبراز اتّحاد الشخصيّة التي عاشت الأحداث مع الراوي والكاتب وإظهار تأخّر زمن النشر عن زمن التجربة تأخّرا أثبت تعويل المؤلّف على الذاكرة. وبناء على كلّ ذلك، فإنّنا نذهب إلى أنّ طه حسين حقّق المقصديّة الأجناسيّة التي أعلن عنها في غضون المصاحب النصّيّ، ونعتبر ذلك الكتاب منتميا فعلا إلى جنس المذكّرات.

ويشي تاريخ نشر المذكّرات ومكانه بأنّ طه حسين توجّه بها إلى القرّاء، بعد أن انتهت حياته الوظيفيّة والسياسيّة التي عرّضته لخصومات متتالية وأثارت حوله جدلا حادّ اللّهجة. ومن الطبيعيّ والحال تلك أن يجنح طه حسين إلى تبرير مواقفه وتفسير حياته كما هو الشأن بالنسبة إلى أعلام ذلك الفنّ الأدبيّ.

وقد أعلن المؤلّف عن ذلك في الفصل الأخير بذكر تأثّره بأستاذ علم الاجتماع "دوركيم" الذي أقنعه بأنّ "أمور الحكم الصالح المنتج الذي يحقّق العدل [...] يجب أن تصير إلى العلماء" (ص252). كما أشار إلى أنّه كان مستيقنا أنّ العلماء والمفكّرين لن ينحازوا إلى الأحزاب ولن يكونوا كغيرهم من عامّة الناس" (ص253). وإثر ذلك اعترف بأنّه "كان واهما في كلّ ما قدّر وأنّ العلماء والمفكّرين ناس من الناس يتأثّرون بالجماعات التي يعيشون فيها فيخطئون مثلها ويصيبون" (ص253). ورغم أنّ أنصار سعد زغلول اعتبروا طه حسين مارقا واعتبره القصر كافرا بالنعمة، فإنّه صرّح بأنّه "لم ينكر من سيرته شيئا ولم يندم على فعل فعله أو قول قاله" (ص260). ولا ريب في أنّ المنزلة التي احتلّها طه حسين في مصر خلال الطور الأخير من حياته قد أذكت شعوره بالنخوة وأقنعته بتميّزه من المبصرين وجعلته يطبع مسيرة حياته بطابع نضاليّ ويؤكّد قدرته على تحدّي العقبات وتحقيق أمانيه. ومن ثمّ كان مدار النصّ على أفعال طه حسين وأقواله وملامح شخصيّته وبانت صلاته ببعض خصائص السيرة الذاتيّة، من دون أن ينأى به ذلك عن حدود جنس المذكّرات. ففصول الكتاب لم تخضع للنسق السرديّ الذي تخضع له فصول السيرة الذاتيّة ولم تنفتح على مرحلة الطفولة المؤسّسة لشخصيّة الكاتب، فضلا عن اقترانها بالميثاق الذي أعلن فيه عن انتماء نصّه إلى جنس المذكّرات.

* * * *

القسم الرابع:

مقاصد كتّاب المذكّرات

الدرس العاشر: المقصد الأوّل: تقديم شهـادة

تمهـيــد:

لمّا كانت المذكّرات التي انتخبناها صادرة عن أدباء، فإنّهـا تكتسي أهميّة خاصّة تميّزهـا من المذكّرات التي ألّفها غيرهم. ذلك أنّهـا تشكّل قسما من أقسام المصاحبات النصيّة المتعلّقة بآثارهم الإبداعيّة والنقديّة لاتّصالها بتجاربهم في الحياة وكشفها عن شخصيّاتهم وعن المؤثّرات فيهم. أمّا نصوصهم الإبداعيّة فهي نصوص صادرة عن ذوات مبدعة لا تطابق بالضرورة شخصيّاتهم الحقيقيّة. وتلك الذوات هي التي تشكّل خطاباتهم الأدبيّة وفق مقتضيات الأغراض وتجنح إلى التخييل أو إلى الغنائيّة أو الإيهام بتصوير الواقع تأثّرا بأفـق الانتظار الذي يكيّف خطابها.

والحقّ أنّ أهميّة خطاب المذكّرات لا تتعلّق ببعدها التوثيقي الدقيق، وإنّمـا تكمن في الكشف عن أذواق مؤلّفيها ونفسيّاتهم وطبائعهم، وفي الهدي إلى الجوانب التي حاولوا إخفاءها أو تضخيمها لسبب من الأسباب. وجميع تلك الوجوه لا يمكن أن تتجلّى في نصوص السيرة التي ألّفها غيرهم عنهم، لأنّها صادرة عن رؤية مؤلّفين، لا قدرة لهم على النفاذ إلى أعماق شخصيّاتهم.

إنّ دراسة متون المذكّرات لا تكون شاملة إلاّ بتحديد عوامل نشأتها ومقاصد مؤلّفيها، إذ بذلك نفهم سبب إقدامهم في فترة من الفترات على تأليف تلك النصوص المتعلّقة بذواتهم. وبالرغم من أنّ المصاحبات النصيّة تشفّ عن قسم من تلك الجوانب، فإنّنـا لا نستطيع التعمّق فيها ما لم نجوّد النظر في المتون لتحليل ما صرّحوا به وتقويم ما أومأوا إليه وتبرير ميلهم إلى إخفاء بعض الجوانب أو إلى تضخيمها.

ولمّا كان كتّاب المذكّرات من الأعلام الذين تمرّدوا على الأنماط الأدبيّة والفكريّة السائدة في عصرهم وخاضوا معارك أدبيّة صاخبة واتّصلوا بأوساط مختلفة، فإنّ مذكّراتهم قدّمت شهادة عن قسم هامّ من تجاربهم في الحياة. ومن أجل ذلك استند إليها بعض الدارسين لترجمة حيوات الأدباء واعتبروها وثائق دقيقة، نظرا إلى أنّ أولئك الأدباء هم الذين تولّوا تأليفها.

ونحن لا نذهب إلى أنّ الشهادة التي يدلي بها مؤلّفو المذكّرات شهادة دقيقة أو ذات قيمة وثائقيّة، وإنّما نهتمّ بها لأنّ ذلك الدافع يعتبر من أبرز الدوافع التي تتسبّب في نشأة المذكّرات. ورغم أنّ جورج ماي قصر دافع الشهادة على السيرة الذاتيّة، فإنّنا نجد ما يبرّر تأثير ذلك الدافع نفسه في نشأة المذكّرات واليوميّات الخاصّة أيضا.

فكاتب السيرة –حسب قول جورج ماي- "يلمّح من طرف خفيّ إلى أنّ كتابه ليس إلاّ شهادة، وحين يصرّح بذلك، فإنّ كتابه يصطبغ في أغلب الأحيان بلهجة وثوقيّة وبأسلوب علميّ أو شبه علمي" (ص51).

وعندما رصد جورج ماي ذلك الجانب في السيرة الذاتيّة قال "إذا بلغت الشهادة حدّها الأقصى من جهة أصبحت وقائع صرفا أو إن شئنا تحقيقا صحفيّا يصطبغ بصبغة من الموضوعيّة ويرد في شكل مذكّرات لا نكاد نجد فيها للكاتب أثرا" (ص52). وبناء على هذا يجوز لنا إجراء ذلك الحكم على قسم هامّ من نصوص مدوّنتنا.

ا ـ مذكّرات الشابي ودافع الشهادة:

أبرز الشابي في يوميّاته التي وسمها بالمذكّرات علاقاته ببعض أفراد عائلته وبأصدقائه وصوّر وجها من وجوه حياته بمدرسة الحقوق وبإدارة العدليّة وأطلعنا على صلاته بالوسط الاجتماعيّ والثّقافي في تونس وكشف لنا عن سلوكه الخاصّ وعن مذهبه في الحياة. ومن أجل ذلك اعتبر فريد غازي تلك النصوص شهادة صادقة وصورة واقعيّة وأنوارا ساطعة تنير نواحي مظلمة من حياة الشابي لولاها لفاتنا منها الكثير.

ولكلام فريد غازي جانب من الصواب، ذلك أنّ "مذكّرات الشابيّ" تعرّضت فعلا لتلك الجوانب التي أشرنا إليها. إلاّ أنّ الصورة التي تعكسها عن حياة الشابي الاجتماعيّة وعن المجتمع التونسي صورة طابعها التعميم والاقتضاب. من ذلك أنّه اقتصر على الحديث عن ابن عمّه وشقيق خطيبته في معرض كلامه عن حادثة "البابور" التي أثارت غضبه وأخرجته عن طوره، وأشار إشارات موجزة إلى علاقته بوالده وإلى السنن الأسريّة التي جعلته مسؤولا عن العائلة. أمّا حديثه عن المجتمع التونسي فكاد يقتصر على ذكر أصدقائه من الطلبة والأدباء، إذ اتّسمت مواقفه في ماعدا ذلك بالتعميم وتلوّنت بلون ذاتيّ واضح.

ومن آيات ذلك أنّه وقف في يوميّة السادس من جانفي 1930 على الجائزة التي رصدها بعضهم لتشجيع الأدباء وعلى نشاط النوادي الأدبيّة، ثمّ قال : "فإذا بي ما ألتفت إلى ناحية من نواحي الحياة التونسيّة إلاّ وأجد فيها نشاطا وحركة ونهوضا، ممّا يبشّر بأنّنا

الآن في عصر انتقال وتطوّر ستشمل حركته كلّ ضروب الحياة في تونس. حقّق اللّه الأمل فقد طال هذا الظلام". وإثر ذلك أعرب عن يأسه من المشاريع الثقافيّة التونسيّة في غضون يوميّة 20 جانفي 1930.

ورغم أنّ تونس تأثّرت بالأزمة الاقتصاديّة العالميّة وتدهورت أوضاعها باستيلاء العائلات الأجنبيّة على أراضيها الخصبة وشهدت حركة سياسيّة مناهضة للاستعمار، فإنّنا لا نجد أثرا لكلّ ذلك في يوميّات الشابي المتعلّقة بمطلع الثلاثينات. ومرجع هذا حسب ما انتهى إليه فريد غازي ضعف وعي الشابيّ سياسيّا وانتماؤه إلى البرجوازيّة الصغيرة التي فضّلت الحياد آنذاك.

ولا شكّ في أنّ العوامل التي قادت الشابي إلى تدوين يوميّاته الخاصّة خلال تلك الفترة بالذات هي التي جعلته يمعن في الحديث عن ذاته ولا يقدّم شهادة موضوعيّة ضافية عن واقع مجتمعه. ومن هنا طغت النزعة الفرديّة الذاتيّة على يوميّات الشابي وتجلّت بعض الأسباب التي حملته على الاعتزاز بإبداعه الشعريّ وعلى شجب من لم يعترف بنبوغه ومن لم يقدّره حقّ قدره.

والحقّ أنّ يوميّات الشابي تكشف عن أنّه مال إلى الانفتاح على ثقافة شاملة ونقم على طرق التدريس التقليديّة في عصره وتبرّم بالمناصب الإداريّة، غير أنّ هذه الشهادة لم تسلم من فعل العوامل التي أثّرت فيه زمن التجربة وزمن التدوين، ذلك أنّها عمدت إلى إبراز تميّزه من سائر الطلبة وتبرير شعوره بالقطيعة معهم. أمّا مواقفه من الشعراء التونسيّين التقليديّين فقد عبّرت عن حدّة صراعه معهم ودلّت على شعوره بالغبن آنذاك. ويكفي أن نشير إلى أنّه تبنّى ضمنيّا موقف من اعتبر "الأدب العاميّ بتونس أبلغ من الأدب العربي بها" ليحطّ من منزلة النزعة التقليديّة السائدة في تونس. ولا ريب في أنّ الضجّة التي أثارتها محاضرته الموسومة بـ "الخيال الشعري عند العرب" وعزوف الجمهور عن المحاضرة التي أعدّها عن كتاب "الأدب العربي في المغرب الأقصى" وانتشار صيت الشعراء التقليديّين قد أضرمت ثورته عليهم وعلى أنصارهم.

ففي يوميّة 5 فيفري صوّر لنا نقمته على جميع أنصار التقليد وخصّ فردا منهم بنعوت ترجمت عن حدّة انفعاله برواج تلك الموجة، إذ قال "وكان أكثرهم جمودا وغباوة وحدّة كهل يلمع الوضح في وجهه ويديه. فقد كان صاحبنا يعتقد أنّ قبادو أشعر الشعراء جميعا". كما أنّنا نجده يستند إلى ما سمعه عن سلوك أديب بعينه لينعت فئة كاملة من الأدباء بأنّها "تدّعي لنفسها الأدب وتزعم أنّها خلقت لقيادة الأفكار. ثمّ هي مع ذلك تتّخذ من مواهبها بخورا تحرقه أمام العاهرات".

ولئن دلّت اليوميّـات على الأسباب التي ولّدت تشاؤم الشابي وعمّقت شعوره بالغربة في مجتمعه وغذّت حنينه إلى عهـد الطفولة، فإنّهـا كشفت –أحيانا- عن ميله إلى ترديد مقولات الرومانسيّين تأثّرا بكتاباتهم التي اطّلع عليها مترجمة أو وقف على أصدائها في آثار جبران خليل جبران، وصمتت عن ذكر ظروف نشأة قصائده خلال تلك الفترة الحاسمة من حياته. وأمارة ذلك أنّه اقتصر في يوميّة واحدة على الإشارة إلى أنّه رأى منظرا عجيبا في المنام دفعه إلى كتابة الشعر وإن لم يحلنا على عنوان قصيدة من قصائده. أمّا قصيدة "النبيّ المجهول" التي وردت بالديوان مذيّلة بتاريخ 21 جانفي 1930 فقد غاب ذكرها في اليوميّات المدوّنة خلال ذلك الشهر.

ولعلّ الثغرات التي تجلّت في اليوميّات التي دوّنها الشابي قبل يوميّة 21 جانفي وما بعدها تلمّح –ضمنيّا- إلى ظروف نشأة تلك القصيدة. ونحن نميل إلى هذا الرأي استنادا إلى الدراسات التي انتهت إلى أنّ انشغال المبدعين بإبداعهم كثيرا ما يصرفهم عن تدوين يوميّاتهم خلال تلك الفترة بالذّات ويترك فيها ثغرات واضحة. وبعودتنا إلى يوميّات الشابي نلاحظ أنّه أشار في يوميّة 13 جانفي إلى أنّه ذهب صحبة زين العابدين السنوسي ومصطفى خريّف إلى النادي الأدبي لإلقاء محاضرته فلم يجد أحدا بالنادي.

وتأثّرا بذلك الحادث اقتصر في اليوم الموالي على تدوين خمسة أسطر عبّر بها عن فتور بدنه وكآبته وكرهه الكتب والأسفار والمحابر والأقلام. وبعد أن عزف عن تدوين يوميّة 15 جانفي صوّر النزهة التي قام بها يوم 16 جانفي، ثمّ ركن إلى الصمت مرّة أخرى خلال يوم 17 جانفي. ولهذا فإنّنـا نقدّر أنّ صمت الشابي وتوتّره خلال تلك الأيّام قد تولّدا عن موقف الجمهور منه ولمّحا إلى اختمار قصيدة النبيّ المجهول في نفسه. أمّا الثغرات التي تلت يوميّة 21 جانفي، فإنّهـا تشي بأنّ التاريخ الذي ذيّل به الشابي قصيدته هو تاريخ انبعاث الفكرة أو تاريخ الشروع في التدوين. وما الأيّام التي انصرف فيها عن كتابة يوميّاتـه إلاّ قرينة على اعتنائه بإنشاء قصيدة "النبيّ المجهول" وتجويد عباراتها.

وهكذا يتجلّى أنّ دافع الشهادة أثّر في نشأة اليوميّات بصورة واضحة، إلاّ أنّ تلوّن تلك الشهادة بلون العوامل التي أشرنـا إليها يؤكّد ضعف جانبها التوثيقي ويظهر اتّسامها بسمة ذاتيّة بارزة. فيوميّـات الشابي كشفت عن طباعه ووجهات نظره وحالاته النفسيّة أكثر ممّا كشفت عن واقع المجتمع التونسي في مطلع الثلاثينات. ومن هنا شكّلت تلك اليوميّـات عنصرا أساسيّـا من عناصر المصاحبات النصيّة المتعلّقة بآثاره الإبداعيّة.

الدرس الحادي عشر:

II ـ مذكّرات بيرم التونسي ودافع الشهادة:

أ ـ مرسيليا ومذكّرات المنفى:

لئن حاول الكثير من الدارسين تبديد أوهام الباحثين عن الصدق المطلق والحقيقة الناصعة في نصوص المذكّرات واليوميّات، فإنّ الجانب التوثيقيّ مازال يشدّ اهتمام القرّاء ويحملهم على الظنّ بأنّ تلك الآثار تمثّل وثائق ينبغي الاحتكام إليها عند كتابة سيرهم، نظرا إلى أنّ كتّاب تلك النصوص هم الذين يتولّون إطلاع القرّاء على حيواتهم الخاصّة والعامّة. وقد نزع جلّ المهتمّين بسيرة محمود بيرم التونسي ذلك المنزع فبوّأوا المذكّرات التي نشرها بمصر منزلة الوثيقة الرئيسيّة عن حياته واستندوا إلى مذكّراته التي نشرها بتونس لتصوير مظاهر حياته في المنفى، وإن اعتبروها صفحات ضائعة في تونس.

ونحن إن عدنا إلى حلقات المذكّرات الموسومة بمرسيليا لاحظنا أنّها تقدّم ضمنيّا شهادة عمّا اطّلع عليه بيرم في المنفى. ذلك أنّها احتفلت بمعالم مرسيليا وأحيائها وشواطئها ونواديها ومنتزهاتها احتفالا دالاّ على اختلاط بيرم بمختلف طبقات المجتمع الفرنسيّ وتمتّعه بمنتزهات فرنسا وبمراتع اللّذة فيها. كما أبانت تلك المذكّرات عن أوضاع الشرقيّين بمرسيليا وصوّرت أسباب غربتهم وعوامل تخلّفهم عن الأروبيّين تصويرا أظهر تميّز حياة بيرم منهم، وتمكّنه من الإقامة بتلك الديار على نسق مخالف للنّسق الذي أقام عليه الأجانب هناك.

ولكنّ الاطّلاع على مذكّرات بيرم في المنفى المتعلّقة بالمرحة التي تعلّقت بها مذكّرات "مرسيليا" يحمل على الشكّ في القيمة الوثائقيّة لتلك الشهادة التي قدّمتها مذكّراته الأولى. فالصورة التي أبداها بيرم عن فرنسا وعن نمط إقامته بها صورة مختلفة كلّ الاختلاف عن الصورة التي كشفت عنها مذكّرات المنفى. ومرجع ذلك خضوع خطاب مذكّراته لعوامل نشأة تحكّمت في ذاته خلال مراحل مختلفة من مراحل حياته ولوّنت خطابه تأثرا بصورة المتلقّي التي استحضرها آنذاك. ولئن قلّل ذلك من أهميّة الجانب التوثيقي في مذكّرات "مرسيليا"، فإنّه قوّى صلاته بذات الكاتب في لحظة من لحظات حياته بالتلميح إلى مقاصده الظاهرة والخفيّة. أمّا مذكّرات المنفى فقد صوّرت الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي كانت عليها فرنسا في فترة ما بين الحربين وأبرزت آثار

الأزمة الاقتصاديّة العالميّة فيها ووقفت على انتشار البطالة وعلى اضطرار الأجانب إلى القيام بأعمال شاقّة للحصول على أوراق شغل ومقاومة الجوع. كما أنّنا نجد بيرم يقتصر على تصوير ألوان الشقاء والغربة والخصاصة التي حدّقت بحياته ودفعته إلى الانضمام إلى صفوف العمّال اليوميّين ليتمكّن من سدّ رمقه. بل إنّه أقدم على إظهار ما كان يخجله أيّام التجربة، وصمت عن ذكر نشاطه الأدبيّ آنذاك، إذ اكتفى بإشارة وحيدة إلى أنّه كان يحرّر صفحات جريدة تصدر بالقاهرة خلال سنة 1921.

ولمّا كانت مقاصد كتّاب المذكّرات متعلّقة بتقديم شهادة على مرحلة حاسمة من مراحل حيواتهم، فإنّ صور الشقاء والحاجة التي خيّمت على مذكّرات المنفى تنطق بأنّ اضطراره إلى القيام بأعمال يدويّة مرهقة واختلاطه بالمعذّبين في الأرض وتألّمه من الخصاصة قد ضغطت على ذاكرته وجعلته يدوّن تلك الجوانب بالذّات. إلاّ أنّ تلك الملامح لا يمكن أن تمثّل وثيقة دقيقة عن نمط حياة بيرم في المنفى، ذلك أنّها أخفت المظهر الذي تعلّقت به مذكّرات مرسيليا، وخاصّة لأنّ عوامل نشأتها ومقاصد مؤلّفها قد لوّنتها بلون ذاتيّ بارز، تأثّرا بحالته النفسيّة وبصور المتلقى التي استحضرها زمن التدوين وزمن النشر الذي حوّر خلاله بعض عباراتها وأعاد صياغة قسم منها.

ب ـ خصوصيّة دافع الشهادة في "مذكّراتي":

لئن تعلّق محتوى المذكّرات الموسومة بـ "مرسيليا" و"في باريس" و"مذكّرات المنفى" بالفترة التي قضاها بيرم في المنفى الفرنسيّ، فإنّ حلقة مذكّراته الموسومة بـ "مذكّراتي" تعلّقت بمختلف مراحل حياته وخضعت لنظام زمنيّ تعاقبيّ. إلاّ أنّ اهتمام بيرم بتدوين تلك المذكّرات في طور الشيخوخة والمرض وإعلانه عن ميله إلى الاختصار قد جعل شهادة تلك المذكّرات شهادة منطوية على عدّة ثغرات، ومناقضة –أحيانا- للشهادة التي قدّمتها مذكّراته السابقة.

ولا ريب في أنّ أبرز جوانب تلك الشهادة تمثّل في تصوير فساد الملك فؤاد والطعن في خدمته لمصالح المستعمر الانجليزي وميل جلّ الوجهاء إلى التزلّف إليه بعد فشل ثورة عرابي باشا. وقد قصد بيرم بذلك تبرير تحامله على المستعمرين وعلى رجال السلطة المتحالفين معهم، وإدانة أولئك الذين ضاقوا بمواقفه، متناسين صفحات نضاله، وإثبات أنّه وقف على معاناة الشعب منذ فجر حياته، ثمّ اتّخذ قلمه وسيلة نضال فكابد من جرّاء ذلك آلام النفي والخصاصة طوال عقدين من حياته.

فقد دلّت المذكّرات على أنّ بيرم فقد والده في طور الصبا ثمّ اشتغل بحانوت نجارة هوادج صحبة زوج أمّه. ولمّا توفيت أمّه تجرّع مرارة اليتم وباع نصيبه من المصنع الذي

ورثه عن والده وجرّب التجارة والصيد فباءت مشاريعه بالفشل. ورغم أنّه اتّخذ القلم وسيلة للرزق ونال شهرة واسعة فإنّ تألّب الملك والمستعمر عليه قد أدّى إلى نفيه من مصر.

ولم تكن إقامة بيرم بتونس أفضل من إقامته بمصر، إذ تنكّرت له عائلة جدّه واحتاط منه التونسيّون، نظرا إلى مواقفه من المستعمر. ومن أجل ذلك ضاقت حياته بتونس واضطرّ إلى السفر إلى فرنسا حيث عمل بمصنع للفولاذ ليتحصّل على أوراق شغل، ثمّ كتب في الصحافة المصريّة فلم يجن من ذلك شيئا ذا بال.

وعندما تسلّل إلى مصر وشى به الأدباء المنافسون له فأعيد إلى المنفى وطالت إقامته هناك لمّا خذله سعد زغلول والنحّاس باشا. ولئن توصّل في النهاية إلى العودة إلى مصر حيث ألّف نصوصا شهيرة، فإنّ ذلك لم يدرّ عليه مالا كافيا، نظرا إلى هضم حقوق المؤلّفين في العالم العربي الذي ذاعت فيه الأغاني التي ألّفها لأشهر المغنّين ولعدّة أفلام مصريّة.

وهكذا اضطلع دافع الشهادة بدور أساسيّ في نشأة هذه الحلقة من مذكّرات بيرم. ذلك أنّ نشأته بالإسكندرية وإقامته مدّة عشرين عاما بالمنفى وتنوّع علاقاته برجال السياسة قبل ثورة 1952 جعلت الجمهور المصريّ والجمهور العربيّ بصفة عامّة غير ملمّ بحياة بيرم الذي ذاع صيته في الأربعينات والخمسينات، ولا يدرك جوهر مواقفه السياسيّة.

إلاّ أنّ الناظر في تلك المذكّرات يلاحظ أنّ تأخّر زمن التدوين عن زمن التجربة قد جعل بيرم ينسى أحداثا هامّة في حياته. من ذلك قوله إنّ المستعمر رحّله إلى تونس والحال أنّ مذكّرات المنفى المنشورة في الثلاثينات نصّت على أنّه أقام بمرسيليا في بداية تلك المرحلة. وقد ذكر بيرم أنّه انتقل إلى تونس، حيث أنشأ جريدة أسبوعيّة اسمها الزمان فتسبّبت مقالاته في ترحيله من تونس والحال أنّ مقالاته بالشباب والسردوك هي التي تسبّبت في ذلك، إذ أنّه أسّس جريدة الشباب بعد أن تولّى رئاسة تحرير الزمان ثمّ انتقل إلى الكتابة بجريدة السردوك.

ومن هنا يتّضح لنا أنّ جميع حلقات مذكّرات بيرم كانت شاهدة على حياته وكاشفة عن العوامل التي نحتت شخصيّته وحدّدت مواقفه. إلاّ أنّ اختلاف السياقات التي نشأت فيها تلك الحلقات جعلته يهدف في كلّ حلقة منها إلى تحقيق مقاصد معيّنة. ولذلك اختلفت محتويات تلك المذكّرات وأساليبها الفنيّة واتّسمت بسمات ذاتيّة قلّصت بعدها الوثائقي.

الدرس الثاني عشر:

III ـ مذكّـرات طه حسين ودافع الشهادة:

إنّ علاقة طه حسين بالبيئة التي تسبّبت في عماه وجعلته مستطيعا بغيره وعمّقت شعوره بعقدة العمى، ومواقفه من شيوخ الأزهر الذين كبتوا نزعته الجداليّة وحرموه من شهادة العالميّة، وتألّمه من الضجّة التي أضرمها أنصار التقليد قد تسبّبت في نشأة كتاب الأيّام وتلوين الشهادة التي قدّمها عن مجتمعه بلون قاتم لتعلّقها بالجوانب السلبيّة في العائلة والقرية والأزهر التي تخرّج منه جلّ المسؤولين في المجتمع المصريّ. أمّا المذكّرات التي دوّنها بعد أن انتهت حياته السياسيّة والوظيفيّة، وبعد أن خاض في الوضع الثقافيّ والتربويّ والسياسيّ المصريّ فقد كان لدافع الشهادة فيها أثر مختلف عن الأثر الذي تركه ذلك الدافع في كتاب الأيّام.

فقد تمكّن طه حسين، رغم جهله اللّسان الفرنسيّ وإخفاقه في امتحان العالميّة بالأزهر من الانتساب إلى الجامعة الفرنسيّة وأحرز على بعض الشهائد العليا واضطلع بدور أساسي في الحياة الجامعيّة والسياسيّة والثقافيّة بمصر. ولهذا، فإنّه مال في مذكّراته التي ألّفها عندما انتهت حياته المهنيّة والسياسيّة إلى تقديم شهادة عن العوامل التي قطعت صلاته بالأزهر وساعدته عل تمهيد السبيل إلى الالتحاق بالجامعة الفرنسيّة، وبسط القول في العقبات التي ذلّلها ليفلح في الحصول على شهائده العليا من الجامعة الفرنسيّة.

ولا ريب في أنّ نجاحه في امتحانات تلك الجامعة قد أثّر في الشهادة التي قدّمهـا عن مسيرة حياته التعليميّة ودفعه إن شعوريّا وإن لا شعوريّا إلى تلوين تلك الشهادة بلون ذاتيّ مشوب بالفخر. من ذلك ادّعاؤه أنّه ضاق بالدراسة في الأزهر منذ الأعوام الأولى، لأنّه لم ير فيها فائدة تذكر، والحال أنّ الأزهر كان من المؤسّسات التعليميّة الشهيرة في العالم العربي آنذاك، وذهابه إلى أنّ سماعه بإنشاء الجامعة الأهليّـة في مصر مثّل إيذانـا له "بأنّ غمّته تلك توشك أن تُكشف وبأنّ غمرته تلك توشك أن تنجلي" (ص9).

ورغم أنّ آفاق التعليم بتلك الجامعة لم تكن واضحة، فإنّه أعرب عن انبهاره الشديد بتميّز أساتذتها من أساتذة الأزهر، وزعم أنّ ذلك نفّره من دروس الأزهر، وقال "ولم ينفق الفتى ثلاثة أيّام منذ انفتاح الجامعة حتّى تغيّرت حياته تغيّرا فجائيّا كاملا". (ص13).

وبما أنّ طه حسين ناصر المجدّدين إثر عودته إلى مصر وتسبّب في تقليص حجم التعليم الأزهريّ لمّا تولّى مقاليد الوزارة، فإنّه بالغ في إظهار عزوفه عن الأزهر منذ فجر شبابه،

وأشار إلى صلاته بلطفي السيد مدير "الجريدة" وعبد العزيز جاويش رئيس الحزب الوطني، وأظهر إقدامه على نقد شيوخ الأزهر في مقالاته الصحفية وأرجع سقوطه في العالميّة إلى تآمر شيوخ الأزهر عليه، ولم يعتبر أنّ قلّة اكتراثه بالدروس قد تسبّب بأيّ وجه من الوجوه في إخفاقه.

ولئن اتّسمت أقواله بسمة الاعتراف –أحيانا- فإنّه لم يتحمّل مسؤوليّة بعض مواقفه تحمّلا كاملا. من ذلك أنّه اعترف زمن التدوين بسخف المقالات النقديّة التي نشرها قبل السفر إلى فرنسا، وذهب إلى أنّ نصيبا غير قليل من ثقل تلك الفصول الطوال السّمجة" يقع على الشيخ جاويش (ص36). وادّعى فضلا عن ذلك أنّه لم يُمنح درجة الامتياز لمّا ناقش رسالة العالميّة بالجامعة المصريّة، لأنّه نقد فيها أستاذا من الأساتذة الذين شكّلوا لجنة المناقشة.

ويبدو أنّ حرص طه حسين على لفت أنظار القرّاء إلى أنّه حقّق ما لم يحقّق إخوته وزملاؤه المبصرون بفضل قوّة عزيمته قد كان عاملا من العوامل الأساسيّة التي ولّدت مذكّراته. ذلك أنّه صوّر إصراره على الانضمام إلى بعثة الطلبة إلى فرنسا، رغم أنّه مكفوف البصر ولم يتخرّج من المدارس الثانويّة، ودلّ على الأسباب التي جعلت الجامعة تستجيب له. وذكر لنا فضلا عن ذلك أنّه توصّل إلى حذق اللّسان الفرنسيّ واللّسان اللاّتينيّ ليتمكّن من الحصول على الإجازة التي أعرض عنها جلّ المصريّين آنذاك بسبب عقبة اللّسان اللاّتيني.

وتشهد المذكّرات على وله طه حسين بالفتاة الفرنسيّة التي اقترن بها واعترافه بفضلها عليه وبدورها في تغيير نظرته إلى الحياة وتمكينه من إعداد العدّة الكافية للحصول على شهائده. ومن أمارات ذلك قوله "وليس من شكّ في أنّه قد صدق كلّ الصدق وأعرب عن ذات نفسه في غير تكثّر ولا غلوّ حين قال في بعض ما كتب إنّ فتاته تلك قد جعلت شقاءه سعادة وضيقه سعة وبؤسه نعيما وظلمته نورا" (ص 184).

ورغم أنّ تلك الفتاة لم ترض به خطيبا إلاّ بعد تردّد طويل، ولم تتعرّف عليه إلاّ عندما أقام بفرنسا، فإنّه أفرط في تمجيد خصالها ولم يعترف بفضل أبيه عليه قبل انتسابه إلى الجامعة الفرنسيّة ولا بفضل أخيه الذي صاحبه إلى فرنسا ليذلّل له العقبات التي تعترضه. بل إنّه أدان ذلك الأخ بإبراز اختلافه معه واتّهم أحد إخوته بالسطو على المال الذي كلّفه والده بإرساله إليه وأدان أخاه الآخر الذي أعاره نظّاراته ثمّ طالبه بإرجاعها إليه.

ولمّا كانت انتماءات طه حسين السياسيّة مؤثّرة في حياته الاجتماعيّة والمهنيّة، فإنّه بيّن دور الجامعة الفرنسيّة في غرس إيمانه بالثورة وإقناعه بأنّ العلماء" هم القادرون على أن يقودوا الشعب إلى الخير ويسلكوا به قصد السبيل" (ص252) وصرّح بأنّه أخطأ في اتّخاذ بعض المواقف مثلما يخطئ سائر الناس، وصوّر وقوفه في صفّ عدلي باشا رئيس الوزراء وتصدّيه لحزب الوفد الذي مثّل صوت الشعب وأكّد مع ذلك أنّه أرضى ضميره "ولم ينكر من سيرته شيئا ولم يندم على فعل فعله أو قول قاله" (ص260)، والحال أنّه وقف مواقف سياسيّة تدعو إلى الريبة.

ومن كلّ هذا يتّضح أنّ لهجة الإدانة التي هيمنت على صوت طه حسين في كتاب الأيّام قد خفتت في كتاب المذكّرات وحلّت محلّها لهجة التنويه بالتعليم العصري وتمجيد قيمة الجامعة الفرنسيّة والاعتزاز بقهر الصعاب والنهوض بأعباء إصلاح المجتمع المصريّ بفضل ما غنمه من إقامته بفرنسا. وعلى ذلك الأساس أومأ طه حسن إلى ضرورة النهل من الثقافة الغربيّة، وحطّ من منزلة التعليم التقليدي في مصر واتّخذ مسيرة حياته برهانا على أنّه علم من الأعلام الذي ينبغي أن نتّخذهم قدوة لنا. ومن آيات ذلك الأقوال التي نسبها إلى أبيه ليظهر تميّزه ويبرز أنّه لم يرهق كاهل العائلة، والحال أنّ والده اضطرّ إلى الإنفاق عليه وعلى الشخص الذي كان يرافقه أيّام دراسته بالأزهر (ص110).

فقد قال طه حسين متحدّثا عن والده: "وكان كثيرا ما يقول لأولئك وهؤلاء: للّه في خلقه شؤون. هذا أضعف بنيّ وأخفّهم عليّ حملا وأقلّهم نفقة. قد أتيح له ما لم يتح لإخوته الأقوياء المبصرين الذين كلّفوني من النفقة ما أطيق ومالا أطيق، لم تتحدّث الصحف عن واحد منهم ولم يقابل الخديوي واحدا منهم، ولم يخطر لي ولا لواحد منهم أنّه قد يسافر إلى أروبا كما يسافر إليها أبناء الأغنياء. وكان قصارى ما تمنّيت لابني هذا أن يجلس إلى عمود في الأزهر ليلقي الدروس على بعض طلاّبه. فإذا هو مسافر إلى باريس تلك التي نسمع من أحاديثها الأعاجيب" (ص110).

وهكذا مثّل دافع الشهادة عاملا من عوامل نشأة مذكّرات طه حسين وكشف عن جانب هامّ من قيمتها. ذلك أنّه دلّنا على بعض العلامات البارزة في حياته وشفّ –في الآن نفسه- عن أهوائه وعقليّته ومكوّنات شخصيّته وأظهر انفتاح تلك المذكّرات على حياته الخاصّة وأثبت أنّها تشكّل قسما أساسيّا من أقسام المصاحبات النصيّة المتعلّقة بمؤلّفاته الفكريّة والأدبيّة.

الدرس الثالث عشر:

المقصد الثاني: التبريـر:

1 ـ مذكّرات الشابي ودافع التبرير:

إنّ شهرة كتّاب المذكـرات وانخراطهم في الحياة الأدبيّة والسياسيّة والفكريّة واهتمام الناس بأقوالهم وأفعالهم ومواقفهم كثيرا ما تشيع عنهم أخبارا لا يرضون عنها، وتجرّهم إلى خوض معارك أدبيّة وفكريّة صاخبة. ومن أجل ذلك نجدهم يعمدون في مذكّـراتهم إلى تصوير ما كانوا عليه شاهدين ويبذلون كلّ ما في وسعهم لتبرير مواقفهم وسلوكهم وإبراز العوامل الحقيقيّة التي تحكّمت فيهم أو العوامل التي يزعمون أنّها تحكّمت فيهم.

وإذا ما التفتنـا إلى حياة الشابي لاحظنا أنّه انزاح عن الاتجاه الكلاسيكي الجديد الذي هيمن على الشعراء التونسيّين، ولفت الانتباه منذ فجر شبابه إلى تميّز معجمه الشعري الرومنسي وإلى اتّحاد صوته بأصوات الأدباء المجدّدين بالمشرق. ورغم أنّ ذلك ضخّم ذاته وجعله يعتزّ بنفسه ويتفنّن في لباسه ليظهر أهميّته، فإنّ جلّ القرّاء والنقّـاد لم يكترثوا –آنذاك- بأشعاره وبمذهبه في الحياة لتعلّقهم بالأدب الكلاسيكي. ومن هنا شعر الشابي بالغربة في مجتمعه وانطوى على ذاته وعزف عن الردّ على مناهضيه. إلاّ أنّ الناظر في يوميّاته يلاحظ أنّه توسّل بذلك الجنس الأدبيّ لتبرير سلوكه وأقواله وأفكاره تبريرا وسم أسلوبه بطابع حجاجي، وأسرف في الإعراب عن تبرّمه بروّاد التقليد ومناصريهم. ومن أمارات ذلك تأكيده في يوميّة 7 جانفي أنّ قلّة اكتراث القرّاء والنقّاد بشعره قد عمّق إحساسه بالغربة، وقوله: "الآن أدركت أنّني غريب بين أبناء بلادي. وليت شعري هل يأتي ذلك اليوم الذي تعانق فيه أحلامي قلوب البشر، فترتّل أغانيّ أرواح الشباب المستيقظة، وتدرك حنين قلبي وأشواقه أدمغة مفكّرة سيخلقها المستقبل البعيد" (ص33).

ولمّا رأى أنّ أصدقاءه وأقاربه قد بالغوا في لومه على نفوره من منصب القضاء وعلى سلوكه مسلكا مستغربا أدرك أنّ المعيار الماديّ المتحكّم فيهم قد حجب عنهم أهميّة المعايير الأخرى، وعمد في يوميّة 26 جانفي إلى الردّ عليهم لتبرير مواقفه والرّفع من مكانته بقوله: "إنّني شاعر وللشاعر مذاهب في الحياة تخالف قليلا أو كثيرا مذاهب النّاس فيها. وفي نفسي شيء من الشذوذ والغرابة أحسّ أنا به حين أكون بين الناس... يجعلني أتّبع سننا ورسوما تحبّها نفسي، وربّما لا يحبّها الناس. وأفعل أفعالا قد لا يراها الناس شيئا محبوبا، وألبس ألبسة ربّمـا يعدّها الناس شاذّة عن مألوفاتهم" (ص73).

وقد استغلّ الشابي يوميّاته ليشير إلى أنّه سلّم المقال الذي نقده فيه محمّد الحليوي إلى مجلّة العالم الأدبي لإيمانه بحريّة النقّاد وتقديره لجهودهم وأعرب عن ذلك بقوله: "إنّني لست من هاته الطائفة التي لا تفهم من النقد إلاّ عداء وسبابا ولا ترفع قلمها إلاّ لغاية سافلة وغرض دنيء. لست والحمد لله من هاته الطائفة" (ص67).

ولعلّ تأثّر الشابي بأقوال المتحاملين على آرائه في "الخيال الشعري عند العرب" يمثّل أهمّ عامل من العوامل التي دفعته إلى إبراز نقمته على أفراد مجتمعه وتبرير مواقفه منهم. ولكن، لئن كان دافع التبرير من العناصر المولّدة ليوميّات الشابي، فإنّ توتّر مزاجه ورهافة إحساسه واعتزازه بذاته قد جعلته لا يهدف إلى تبرير مواقفه وسلوكه بقدر ما يهدف إلى الافتخار بنفسه واتّهام أنصار التقليد وأتباعهم وإدانة كلّ من لم يقدّره حقّ قدره.

2 ـ مذكّرات بيرم التونسي ودافع التبرير:

ساهم دافع التبرير في توليد الحلقة الأخيرة من مذكّرات بيرم التونسي أكثر من مساهمته في توليد الحلقتين الأوليين. فقد رأينا أنّه صوّر في مذكّراته الموسومة بـ"مرسليا" معالم تلك المدينة ومنتزهاتها ونواديها وكنائسها وحلّل أخلاق سكّانها واستخلص عوامل غربة الأجانب بها وتوتّر علاقتهم بالفرنسيّين المقيمين بفرنسا ودلّ أحيانا على تميّزه من الفرنسيّين أنفسهم، وأبرز أنّه أقام بتلك الديار إقامة السيّاح الأثرياء. ومن هنا ذهبنا إلى أنّه توجّه بخطابه إلى القرّاء التونسيّين ليبرّر جدارته بالمنزلة التي احتلّها في جريدة الزمان ويحملهم على الاعتراف بقيمته. ولعلّه أظهر الفرق بين الشرقيّين والغربيّين في تلك المذكّرات ليبرّر إقدامه على نقد عادات المصريّين وطبائعهم في أزجاله وآثاره السرديّة ويحثّهم على الاقتداء بالشعوب المتقدّمة.

أمّا مذكّرات المنفى فقد أشارت إلى إقصاء بيرم عن مصر وإلى إفراط أصحاب الصحف المصريّة في ابتزازه لتبرّر –من ناحية- معاناته واضطراره إلى القيام بأعمال شاقّة، وتعرب –من ناحية أخرى- عن استخفافه بالعقبات التي واجهته في تونس.

وليس من شكّ في أنّ دافع التبرير هو أهمّ عامل من عوامل نشأة الحلقة الأخيرة من مذكّرات بيرم، ذلك أنّ الشهرة التي نالها في مصر بفضل المسرحيّات والأفلام والأغاني والأزجال قد أثارت غيرة بعض الزجّالين ودفعتهم إلى اتّخاذ القصيدة التي مدح بها فاروق والقصائد التي هجا بها النحّاس باشا مطيّة للحطّ من منزلته.

ومن أجل ذلك عمد بيرم إلى التذكير بألوان الشقاء التي كابدها بسبب وقوفه في وجه الطغاة ومساندة الثورة المصريّة وأبرز أنّه رفض ما وعدوه به من مناصب وأموال لأنّه يأبى أن يرضى "بأيّ شيء من متاع الدنيا على حساب ضياع استقلال البلاد واستغلال الناس" (مذكّراتي ص121). وقد صرّح -فضلا عن ذلك- بأنّه أقدم على هجاء النحّاس باشا ثأرا لنفسه، نظرا إلى أنّه اتّهمه في فرنسا تهمة تسبّبت في حرمانه من عمل مريح وأعادته إلى صفّ البطالة، وأنّه مدح فاروق قبل أن يطغى في الحكم عندما لم يجد حلاّ آخر يمكّنه من الإقامة بمصر بعد غربة دامت عشرين عاما، ثمّ أعرض عن السياسة إلى أن قامت ثورة الضبّاط الأحرار وتولّى جمال عبد الناصر رئاسة مصر. ومن الشواهد على ذلك إشارته إلى أنّه بدأ حياته مكافحا وعكف في آخر حياته على تأليف ملحمة "الظاهر بيبرس" التي تمثّل في نظره مظهرا من مظاهر الكفاح، وأشهدنا بذلك على أنّ حياته سلسلة من حلقات الكفاح يشدّ بعضها بعضا. وبهذا يتأكّد لدينا أنّ محمود بيرم التونسي كتب مذكّراته وتوجّه بها إلى القرّاء، نظرا إلى اهتمام الناس بأفعاله وأقواله.

3 ـ مذكّرات طـه حسين ودافع التبرير:

لقد أظهر طه حسين، إثر عودته من فرنسا شدّة إعجابه بحضارتها ومفكّريها وأدبائها، ثمّ نزع إلى السخرية من علماء الأزهر وأنصار التقليد عندما تهجّم بعض المصريّين على كتابه الموسوم بـ "في الشعر الجاهلي". وقد ساهم بفضل الآراء التي أعرب عنها في كتابه الموسوم بـ "مستقبل الثقافة في مصر" وبفضل الإصلاحات التي قام بها عندما تولّى شؤون الوزارة في نشر التعليم العصري في مصر، وكان من أهمّ المزهّدين في التعليم التقليدي. كما أنّه خاض عدّة معارك بسبب مواقفه السياسيّة أو بسبب مذهبه في النقد. ومن الطبيعي والحال تلك أن يكون دافع التبرير من العوامل الأساسيّة المولّدة لمذكّراته التي أصدرها بالصحف المصريّة ليطلع عليها عددا كبيرا من القرّاء.

والناظر في المذكّرات التي ألّفها طه حسين يلاحظ أنّه بنى قسما منها بنية تحليليّة أو بنية تركيبيّة على نحو مقالاته النقديّة ليظهر اتّسام شهادته بسمة الموضوعيّة ويبرّر مواقفه تبريرا منطقيّا. من ذلك أنّه دلّ على أسباب إخفاقه في شهادة العالميّة وحرمانه من درجة الامتياز عندما ناقش رسالته عن أبي العلاء ليدحض شكّ الناس في مؤهّلاته العلميّة. وقد ذكر –فضلا عن ذلك- أنّ مواد التعليم بالأزهر وطرق تدريسها لم تغذّ عقله ليثبت أنّ الأزهر لم يهيّئه بأيّ وجه من الوجوه لمتابعة دروس الجامعة الفرنسيّة.

وليس من شكّ في أنّه قارن بين شيوخ الأزهر وأساتذة الجامعة الفرنسيّة ليبرّر تنويهه بالتعليم الجامعي الفرنسي، وبسط القول في العقبات التي اعترضت سبيله ليلفت الانتباه إلى المجهودات الجبّارة التي بذلها ليذلّل قسما من تلك العقبات.

ولئن شفّ كلّ ذلك عن افتخاره بذاته، فإنّه صوّر علاقته بإحدى الفتيات الفرنسيّات ليؤكّد أنّها هي التي يسّرت له الحياة وجعلته يبصر العالم بعينيها وأعانته على الاستعداد للامتحانات التي اجتازها بنجاح. وبهذا برّر إعجابه بتلك الفتاة الفرنسيّة واعترافه بفضلها عليه وذهابه إلى أنّها خلقته خلقا جديدا.

ورغم أنّه تفانى في طلب العلم بفرنسا، فإنّه اعتنى بالسياسة، نظرا إلى تأثّره بأحداث الحرب العالميّة الأولى وإعجابه بآراء أستاذه دوركايم. ومن هنا برّر اهتمامه بالتعليم الجامعي وبالوضع السياسي في مصر، منذ عودته من فرنسا، وأكّد أنّه لم يركن إلى الانشغال بدروسه الجامعيّة عن وضع مجتمعه في فترة تاريخيّة حاسمة، وإنّما اضطلع بواجبه وأرضى ضميره ولم يذعن لرغبة رجال السلطة.

وهكذا يتّضح أنّ دافع التبرير قد ساهم في توليد مذكّرات طه حسين، نظرا إلى اعتزازه بنفسه وميله إلى الطعن في أقوال كلّ من آخذه على معارضة حزب الوفد خلال مرحلة طويلة من حياته وفي أقوال من اعتبر مواقفه ناجمة عن الطمع في تحقيق مصالح خاصّة. ومن ثمّ كشفت مذكّراته عن رغبته في دفع الناس إلى الاستنارة بتلك الأقوال عند حكمهم على مسيرة حياته وفهم شخصيّته.

* * * *

شعريّة المذكّرات :

كنّا أشرنا إلى أنّ قراءة نصوص المذكّرات في ضوء جنسها الأدبيّ تمكّن من تحديد أركانها الفنيّة وخصائصها المضمونيّة، نظرا إلى نهوض الأجناس الأدبيّة على تلك الأركان بالذّات. فكلّ نصّ يُكتب في إطار جنس أدبيّ معيّن، سواء تقيّد مؤلّفه بالحدود العامّة الضابطة لجنس من الأجناس الأدبيّة أو مال إلى تحويل قسم من أقسامها. ومن ثمّ فإنّ المقاربة الشعريّة لنصّ من النصوص لا بدّ أن تنزع إلى فحص العناصر الأجناسيّة التي توسّل بها المؤلّف عند صياغة نصّه لتحديد انتمائه الأجناسيّ وفهم جوهر خطابه.

وعلى ذلك الأساس ضبطنا العلاقة التي نسجتها مدوّنتنا مع طبقة النصوص المكوّنة لجنس المذكّرات ولأجناس الحكي الحقيقيّ الأخرى المتّصلة بشخصيّات الكتّاب، واستخلصنا العناصر الأجناسيّة التي هيمنت عليها وهدت إلى الجنس الأدبي الرئيسيّ

الذي انتسبت إليه تلك المدوّنة، وكشفت عن مدى كثافتها الأجناسيّة وعمّا تنطوي عليه خصائصها من دلالات.

ورغم ما لهذه العلاقة من قيمة، فإنّها لا تمكّن من الإحاطة بجميع الخصائص الفنيّة للمذكّرات ولا بمختلف دلالالتها. ومرجع ذلك أنّ متون المذكّرات نشرت محفوفة بهوامش أثبتها المؤلّفون أنفسهم، كما أنّها نشأت في سياقات مخصوصة أثّرت في خطابها تأثيرا واضحا. ولهذا فلا مناص لمن يروم دراسة المذكّرات دراسة شعريّة من قراءة تلك المتون في ضوء علاقاتها بمصاحباتها النصيّة، إذ بذلك يتسنّى له انتهاج السبيل الأقوم إلى ضبط جنسها الأدبيّ وإدراك عوامل نشأتها وسياق تقبّلها واستخلاص قيمتها الحقيقيّة.

ولمّا كانت العلاقات التناصيّة من العلاقات الهامّة التي تربط المتون بغيرها من النصوص لإثراء خصائصها الأجناسيّة وبلورة قسم من دلالاتها، فإنّ الوقوف على تلك العلاقة التناصيّة يكشف عن وجه آخر من وجوه شعريّة مدوّنتنا ويدلّ على ركن أساسيّ من أركان أدبيّتها.

ورغم أنّ هذه المسائل الشعريّة تتعلّق بحقول معرفيّة مختلفة فلا بدّ من الاعتماد عليها لدراسة المذكّرات دراسة معمّقة حتّى لا ننساق إلى إطلاق أحكام ارتساميّة عامّة تغيّب قيمتها الأدبيّة، أو إلى إسقاطات متعسّفة على النصوص أو إلى إبداء آراء عامّة من قبيل تلك التي يكرّرها بعض الدارسين مهما كان نوع المدوّنة التي يتولّون تحليلها.

وليس من شكّ في أنّ عسر المقاربة الشعريّة التي تهدف إلى تحليل مختلف العلاقات التي تنسجها متون المذكّرات مع غيرها من النصوص قد نفّر الكثيرين من سلوك ذلك المسلك التحليلي. ومن أقوى الأدلّة على ذلك قلّة الدراسات التنظيريّة المتّصلة بالأجناس الأدبيّة المندرجة في حقل الحكي الحقيقيّ وميل الأبحاث المتعلّقة بمدوّنتنا إلى الاكتفاء بتحليل الجوانب المضمونيّة.

ولكلّ هذا، فإنّ الدارس يجد نفسه مضطرّا إلى التعويل على بعض الأعمال المهتمّة بالسيرة الذاتيّة لتبيّن الخصائص الفنيّة المميّزة للأجناس الأدبيّة المجاورة لها، وتجويد النظر في خصائص المدوّنة التي ضبطها لتحديد جوانبها الشكليّة والدلاليّة.

الـملاحـق

الملحـق1:

الحدود الفاصلة بين السيرة

الذاتيّة والمذكّرات

إنّه لينذر ألاّ يقحم كاتب المذكّرات نفسه من حين إلى آخر فيما يكتب، وبذلك يغدو، دون قصد منه أحيانا، كاتب سيرة ذاتيّة. وكذلك الشأن بالنّسبة إلى كاتب السيرة الذاتيّة، إذ يندر ألاّ تطفو على سطح ذاكرته الأحداث العامّة التي كان عاشها، بحيث يضطلع أحيانا في ما يكتب بدور المدوّن لتلك الأحداث، وإن لم يكن ذلك منه تعمّدا. ليصرخ "مالرو" ما شاء أن يصرخ في مستهلّ المذكّرات المضادّة قائلا: "أيّ همّ في ما كانت أهميّته وقفا عليّ؟. أتراه كان يتوقّع حقّا أن يصدّقه قارئه، فلا يعتبر هامّا إلاّ ما كان "مالرو" يراه غير ذي أهميّة في حياته؟ والحقّ أنّ الشهادات التي تقدّمها لنا المذكّرات المضادّة في شأن "ماو" (Mao) أو "نهرو" (Nehru) أو المقاومة السريّة [في فرنسا زمن الاحتلال النّازي أو بداية الجمهوريّة الرابعة، بل وحتّى في شأن الجنرال "دي غول" إنّما تكمن أهميّتها في كونهـا شهادات "مالرو". ويمكن أن نقول مثل ذلك عن مذكّرات "شارل دي غول"، والأرجح أن "مالرو" نفسه إنّما نظر إليها بهذا المنظار. أفلا نشعر عند حديث "مالرو" عن هذه المذكّرات أنّه يتمنّى في قرارة نفسه أن يلمح القارئ في نصّه صورة المذكّرات المضادّة تتراءى له ما بين السّطور؟ يقول عن مذكّرات "دي غول" : "ما هذا الكتاب بكتاب مذكّرات على نحو ما نجده في اعترافات "روسو"، أو على نحو ما ذهب إليه "سان سيمون". فما سكت عنه "دي غول" عند حديثه عن نفسه (بدءا باسمه "شارل") ليس بأقلّ دلالة ممّا ذكره عنها. إنّ هذه المذكّرات قصّة لعمل تاريخيّ يرويها الشخص الذي قام بذلك العمل، وهي في هذا شبيهة بمذكّرات "القيصر" التاريخيّة أو الأناباز لـ"قزينوفون" وفيهما يتحدّث الكاتبان بضمير الغائب. ويجوز لنا في هذا الصّدد أن نعتبر كتاب تربية هنري آدامس على طرف نقيض مع كتاب المذكّرات المضادّة. ومهما بلغ حرص "آدامس" على الاقتصار على قصّ ما أسماه بـ "تربيته"، فإنّ الأزمات العموميّة التي حفّت بحياته قد كان لها بعض الأثر في هذه التّربية، خصوصا وأنّ هذه الأحداث قد كانت لصيقة به إلى درجة أنّه لم يكن بإمكانه أن يتنصّل من ذاته، إذ تولّى جدّه وجدّ أبيه رئاسة الولايات المتّحدة الأمريكيّة. بل إنّ "هنري آدامس" في بعض الأحيان، وخاصّة

عند حديثه عن سنوات حرب الانفصال التي قضاها في لندن كاتبا خاصّا لأبيه "شارل فرانسيس آدامس"، وزير الولايات المتّحدة ببريطانيا العظمى، يجهد نفسه سدى لكي لا يتحوّل في بعض السياقات من مترجم لذاته إلى مؤرّخ. يقول لست أروي ههنا قصّة المغامرات الديبلوماسيّة لـ"شارل فرانسيس آدامس"، وإنّما أروي "قصّة مغامرات نجله "هنري" في طلب التّربية". ويقول أيضا: "لقد كانت فترة حرجة ـ بل أحرج فترة في سجلاّت الدّيبلوماسيّة الأمريكيّة في حدود ما يحقّ لكاتب خاصّ أن يحكم به عليها.ـ غير أنّ رواية هذه الفترة لا تتعلّق بالتربية بل بالتاريخ، فليعد إليه من شاء الاطّلاع عليها".

وعلى هذا ترى أنّ نيّة الكاتب، مهما بلغ نصيبها من الصّدق، لا يُطمأنّ إليها في تحديد طبيعة أثره. فلا يخلو الأمر من اثنتين: إمّا أن تكمن وراء النيّة المعلنة نيّة أخرى يخفيها الكاتب عن قارئه، ولربّما أخفاها عن نفسه أيضا، وهذا عين ما نجده في عبارة "مالرو": أيّ همّ لي في ما كانت أهميّته وقفا عليّ؟، وإمّا أن يفلت الأثر حقيقة، أثناء تدوينه، من رقابة كاتبه، ويصبح أحيانا أبعد ما يكون عن المقصد الأصليّ لصاحبه. وهذا ما وقع لـ"هنري آدامس" وحتى لـ"سيمون دي بوفوار" عند حديثها عن باريس أيّام احتلال الألمان لها. وقد تعترضنا في الحالتين جميعا صعوبات يكاد يكون حلّها مستحيلا إن نحن حاولنا التثبّت من صحّة مختلف التّصنيفات المذكورة، فقارنّا بعضها ببعض، وحاولنا المزاوجة بينها وبين مختلف الدوافع التي درسناها في غضون الفصل الثالث. ويزداد الأمر صعوبة إذا نحن ألزمنا أنفسنا بالوقوف عند ما أسميناه بالدّافعين الأكثر عقلانيّة، وهما دافع الشهادة ودافع التبرير. فدافع الشهادة يمكن أن تنشأ عنه، إن تعلّق الأمر بشهادة المرء على ما رأى، مذكّرات من قبيل مذكّرات "مدام دي موتفيل"، أو تنشأ عنه، إن تعلّق الأمر بشهادة المرء على ما فعل، كتب وقائع أو تحقيقات من قبيل حياة الشهداء لـ "جورج دوهاميل" (Georges Duhamel)، وخلافا لذلك، يمكن أن تنشأ عن دافع الشهادة هذا سير ذاتية تطمح إلى أن تكون مثالا في الجدّ والوضوح، من قبيل السير الذاتية التي وضعها "روسو" و"باندا"، إن تعلّق الأمر بشهادة المرء على نفسه. أمّا دافع التبرير، فقد يتعلّق أيضا بتبرير فعل أو قول أو فكرة بعد حصولها. وما مذكّرات السّاسة والقوّاد وذوي النّفوذ في هذا العالم إلاّ تبرير .يستوي في ذلك "القيصر" واللواء و"يقاند" (Weygand) ، "أوقست" (Auguste) و"لويس الرابع عشر" (Louis XIV)، و"ريشليو" (Richelieu) و"بوانكاري" (Poincaré). لكنّ اعترافات "روسّو"، وكتاب "جيد" لو أنّ البذرة لا تموت، وحتّى ذكريات الطّفولة والشباب لـ"رينان"، هي أيضا تبرير.

إنّنا كلّمـا أوغلنا في البحث عن الحدود الفاصلة بين السيرة الذاتيّة والمذكّرات، ازددنا يقينا من أنّها غائمة زئبقيّة قّلّب وهميّة. فلئن جاز لنا أن نساير النقاد من حيث المبدأ في تأكيدهم قدرتهم على استشفاف السيرة الذاتيّة من خلال ما تختصّ به من "نبرة" ونوعيّة حضور و"تميّز للصّوت"، فإنّه لا مناص لنا من الإقرار بأنّ مقاييس كهذه ذاتيّة مفرطة في الذاتيّة إلى حدّ أنّها تمنع حصول الإجماع بين القرّاء. ولمّا كانت السيرة الذاتيّة سليلة المذكّرات، فإنّها لم تحظ في الواقع إلاّ باستقلال ذاتيّ هشّ لا يعدل ذلك الاستقلال الذي حظي به اسمهـا. إنّ تاريخ هذا الاسم هو بدون شكّ صورة لطبيعة السّيرة الذاتيّة، ولكنّه مع ذلك لا يضبط لها حدودا، ولا يجعل لها قيودا.

جورج ماي: السيرة الذاتيّة

تونس، بيت الحكمة، 1992

ص ص 134-137

الملحق 2:

أدب العصور الوسطى ونظريّة الأجناس

كلّ رائعة حقيقيّة تخرق قانون جنس مقرّر، زارعة بذلك البلبلة في أذهان النقاد الذين يجدون أنفسهم مضطرين إلى توسيع الجنس.

إنّ اعتراض "كروتشه" ـ الذي أدان، كما ترى، المتصوّر المعياري للجنس ـ يتضمّن بدوره شرطا جوهريّا للعمل الفنّي يجهله "كروتشه" ويسمح بإبراز الواقع التاريخي والوظيفة الجماليّة والنجاعة التأويليّة لمتصوّرات الجنس. إذ، كيف يجاب بطريقة حقيقيّة عن تلك المسألة ـ الوحيدة المشروعة في نظر "كروتشه" الذي يتساءل بصددها عمّا إذا كان عمل فنيّ ما تعبيرا مكتملا أو نصف نجاح أو فشلا ـ إن لم تكن الإجابة بواسطة حكم جمالي يسمح، داخل العمل الفني، باستكناه التعبير الوحيد عمّا يحقّ لنا انتظاره، عمّا يوجّه إدراك القارئ وفهمه، وتبعا لذلك يكون الجنس؟

فحتى الأثر الفني الذي ـ قد يحقّق الوحدة المثاليّة بين الحدس والتعبير على رأي "كروتشه"، لا يمكنه أن يكون معزولا بصورة كاملة عن كلّ ما يمكننا أن ننتظره منه، أو أصبح غير مفهوم. إنّ العمل الفنيّ ـ حتّى باعتباره مجرّد تعبير عن الفردي (وهو ما يعمّمه "كروتشه" خطأ في جماليته المتعلّقة بالمعيشيّ وبالعبقريّة) ـ يبقى مع ذلك مكيّفا "بالغيريّة" أي بالعلاقة بالآخر بوصفه ذاتا مدركة.

وحتى في الحالة التي يكون فيها إبداعا لغويّا صرفا ينفي الانتظار أو يتجاوزه، فهو يفترض معلومات مسبقة أو توجيها للانتظار، بها تقاس الجدّة والطرافة، أفق الانتظار ذاك الذي يتكوّن لدى القارئ بواسطة تراث أو سلسلة من الأعمال المعروفة قبلا، وبالحال الخاصّة التي يكون عليها الذهن وتنشأ مع بروز الأثر الجديد عن وقوانين جنسه وقواعد لعبته. وكما أنّه لا يوجد تواصل باللغة لا يمكن إرجاعه إلى معيار أو إلى اصطلاح عام اجتماعي أو مشروط بسياق، فكذلك لا يمكن أن نتصوّر أثرا أدبيّا يوجد داخل ضرب من الفراغ الإخباري، ولا يرتهن بأيّ وضعيّة مخصوصة للفهم. وفق هذا المعيار، فإنّ كلّ أثر أدبي ينتمي إلى جنس. وهو ما يعود إلى التأكيد بكلّ بساطة أنّ كلّ أثر يفترض أفق

انتظار، بمعنى مجموعة من القواعد السابقة الوجود لتوجيه فهم القارئ (الجمهور) وتمكينه من تقبّل تقييميّ.

إلاّ أنّ توسّع دائرة الجنس توسّعا متجدّدا يرى فيه "كروتشه" ـ بضرب من قياس الخلف ـ نهاية سلطة مفاهيم الجنس هو، من جانب آخر، علامة على طبيعة الأجناس الأدبيّة الزمنيّة والمتحوّلة تحوّلا مشروعا، وذلك بمجرّد استعدادنا لإفراغ مفهوم الجنس الكلاسيكيّ من جوهره. من أجل ذلك، ينبغي ألاّ يسند إلى "الأجناس" الأدبيّة (عندما لا يتناول المفهوم إلاّ في معناه الاستعاري) أيّ سمة تعميم أخرى باستثناء تلك التي تبرز في تجليها التاريخي. وليس الغرض أصلا من حذف ما في مفاهيم الجنس في الإنشائيّة الكلاسيكيّة من إطلاق إلغاء كلّ سمة تعميم تكشف تماثلات أو قرابات داخل مجموعة من النصوص. لنذكر هنا ـ كذلك ـ أنّ اللسانيّـات تتحدّث عن تعميم يحتلّ مكانة وسطى بين الكوني والفردي. إنّ الأمر يتعلّق بإدراك الأجناس الأدبيّة لا باعتبارها "أقساما" بالمعنى المنطقي (Genera)، بل باعتبارها "مجموعات" أو "عائلات تاريخيّة". لن يمكننا، إذن، العمل بطريقة الاشتقاق أو التعريف، بل بطريقة الملاحظة والوصف الاختباري فحسب. وفي هذا المعنى تُماثل الأجناس اللغات التاريخيّة (مثل الألمانيّة أو الفرنسيّة) التي نعتبر أنّها لا يمكن أن تعرف، بل أن ينظر فيها من وجهة نظر آنية أو تاريخيّة فحسب.

إنّ إيجابيّات تعريف كهذا، يعرض للخصائص العامّة للأجناس الأدبيّة ـ لا من وجهة نظر معياريّة أو تصنيفيّة، بل تاريخيّة، أي ضمن "تواصل يتّسع فيه كلّ ما هو سابق ويكتمل بما يلحق" ـ هي إيجابيّات واضحة. من هنا فإنّ صياغة النظريّة تتحرّر من النظام المتدرّج لعدد محدود من الأجناس أقرّها نموذج الأسلاف، وليس لها أن تتداخل أو تتكاثر. وإذا ما اعتبرت كمجموعة أو عائلة تاريخيّة، فإنّ الأجناس الكبرى أو الصغرى المكرّسة ليست الوحيدة التي يمكن جمعها ووصفها ضمن تنويعات تاريخيّة، مختلفة، إذ يمكن أن نفعل نفس الشيء بالنسبة إلى سلاسل أخرى من الآثار تربط بينها بنية تكون تواصلا وتتجلّى في سلسلة تاريخيّة. إنّ التواصل الذي يكوّن الجنس يمكن أن يوجد بتجميع كلّ نصوص جنس ما ـ مثل الحكاية على لسان الحيوان ـ أو ضمن السلاسل التقابليّة لأنشودة البطولة، والرواية البلاطيّة، أو ضمن تتابع أعمال مؤلّف واحد مثل "روتبوف" أو ضمن تجليّات أسلوبيّة عامّة تخترق عصرا كاملا ـ مثل التصنّع المجازي في القرن 13 ـ ولكن أيضا في تاريخ شكل وزني مثل "ثماني المقاطع" ذي القافية المزدوجة، أو في موضوع مثل موضوع شخصيّة "الإسكندر" الخرافيّة في العصر الوسيط. يمكن للأثر نفسه كذلك أن يسمح بتناوله من زاوية مظاهر أجناس عديدة، مثال ذلك "رواية الوردة" لجان دي

مونق"، حيث تتقاطع ـ مجموعة ضمن الإطار التقليدي لقصّة الحبّ الرمزيّة ـ أشكال من الأهجية والمحاكاة الساخرة، ومن القصّة الأخلاقيّة الرمزيّة والتصوّف (احتذاء لمدرسة "شارتر")، ومن الرسالة الفلسفيّة ومشاهد من الملهاة (دور الصديق ودور العجوز). إن تأليفا مركّبا كهذا ـ من جهة أخرى ـ لا يعفي الناقد من إلقاء السؤال المتعلّق بالعنصر المهيمن المتحكّم في نظام النصّ: في مثالنا، يتعلّق الأمر بجنس الموسوعة العلمانيّة التي استطاع "جان دي مونق" أن يوسّع بصورة رائعة أشكالها التصويريّة.

إنّ إدراج مفهوم العنصر المهيمن الذي يرتّب نظام أثر مركب يسمح بتحويل ما كان يُسمّى "خليط أجناس" إلى مقولة منتجة منهجيّا. وهو الخليط الذي لم يكن ـ في النظريّة الكلاسيكيّة ـ سوى الموازي السلبي "للأجناس الصريحة" ينبغي بعد ذلك التمييز بين بنية جنس ذات وظيفة مستقلّة (أو مكوّنة) وأخرى تابعة (أو مصاحبة). من ذلك أنّه، في العصر الوسيط الروماني، لم تظهر الأهجية أوّلا ـ ولمدّة طويلة ـ إلاّ ضمن وظيفة تابعة ترتبط بالوعظ والقصيدة الأخلاقيّة التعليميّة والحكميّة (مثل "إنجيل فيو").

هانس روبرت ياوس: أدب العصـور

الوسطى ونظريّـة الأجنـاس، ضمن

نظريّة الأجناس الأدبيّـة، جـدّة،

النادي الأدبي الثقافي،

1994، ص ص 54-57

المصادر والمراجع

I ـ المصادر:

ـ محمود بيرم التونسي: مذكّراتي (المجموعة الكاملة)، جمع وتقديم فوزي الزمرلي، تونس، دار الجنوب للنشر، 2001.

ـ طه حسين: مذكّرات طه حسين، بيروت، دار الآداب (د.ت)

ـ أبو القاسم الشابي: مذكّرات الشابي (د.ت.ن،1966).

- - - - - - - - -

II ـ المراجع:

1- باللّسان العربي:

أ ـ الكتب:

ـ الألوسي جمال الدين: طه حسين بين أنصاره وخصومه، بغداد، مطبعة الإرشاد 1973.

ـ الجابري محمد صالح: محمود بيرم التونسي في المنفى: حياته وآثاره. لبنان دار الغرب الإسلامي1987.

ـ الجندي أنور: أضواء على الأدب العربي المعاصر. القاهرة 1968.

ـ الجوادي محمد: مذكّرات الهواة والمحترفين في كتابة الترجمة الذاتيّة. القاهرة ـ بيروت، دار الشروق 1997.

ـ الحليوي محمد: رسائل الشابي، تونس، دار المغرب العربي، 1966.

ـ الزراعي الحسناوي: محمود بيرم التونسي في تونس، تونس، الأخلاّء، 1986.

ـ الزمرلي فوزي: شعريّة الرواية، الطبعة الأولى، تونس، مركز النشر الجامعي وكليّة الآداب بمنوبة، 2002. الطبعة الثانية، دمشق، مؤسّسة القدموس الثقافيّة، 2007.

ـ الزيات محمد حسن: ما بعد الأيام، القاهرة، دار الهلال (د.ت)

ـ سعد كمال: صفحات ضائعة من حياة بيرم التونسي، بيروت، المكتبة العصريّة (د.ت)

ـ السكوت حمدي ومارسدن جونس: طه حسين، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط2، س1982.

ـ شكري غالي: ماذا بقي من طه حسين، بيروت دار المتوسط، 1974.

ـ الشيخ خليل: الانتحار في الأدب العربي: دراسات في جدلية العلاقة بين الأدب والسيرة، بيروت، المؤسسة العربيّة للدارسات والنشر، 1997.

ـ ضيف شوقي: الترجمة الشخصيّة، القاهرة، دار المعارف 1979.

ـ طه حسين كما يراه كتّاب عصره (مؤلّف جماعي)، دار الهلال (د.ت)

ـ عبّاس إحسان: فنّ السيرة، عمّان، دار الشروق، 1988.

ـ عبد الدايم يحيى إبراهيم: الترجمة الذاتيّة في الأدب العربي الحديث، بيروت، دار النهضة العربيّة (د.ت).

ـ علبي أحمد: طه حسين سيرة مكافح عنيد، بيروت، دار الفرابي 1990.

ـ غازي محمد فريد: الشابي من خلال يوميّاته، تونس، الدار التونسيّة للنشر، 1975.

ـ فيتوركارل... نظريّة الأجناس الأدبيّة، تعريب عبد العزيز شبيل، السعودية، النادي الأدبي بجدّة، ط1، 1994.

ـ كرّو أبو القاسم محمد : دراسات عن الشابي تونس، الدار العربيّة للكتاب 1984.

ـ الكيالي سامي: مع طه حسين، القاهرة، دار المعارف (سلسلة اقرأ 301) س1968.

ـ ماي جورج: السيرة الذاتيّة. تعريب: محمد القاضي وعبد الله صولة، تونس، بيت الحكمة 1992.

المبخوت شكري: سيرة الغائب سيرة الآتي. تونس، دار الجنوب، 1992.

ب ـ المقـالات والفصـول:

ـ بكّار توفيق: مشاركة في دراسة أبي القاسم الشابي، حوليات الجامعة التونسية، ع2، س1965.

ـ بيتي أوديت: تحليل نصّيّ للفصل الأوّل من كتاب الأيّام. ترجمة بدر الدين عرودكي، المعرفة ع 182، س1977.

ـ الجندي أنور: المعارك الأدبيّة بين طه حسين وكتّاب عصره، مجلة الهلال ع1، س1974.

ـ الشملي المنجي: طه حسين، حوليات الجامعة التونسيّة، ع10، س 1973.

ـ صوليّة عبد اللّه: كتاب الأيّام لطه حسين خطابا حجاجيّا. ضمن: صناعة المعنى وتأويل النصّ، كليّة الآداب منوبة 1992.

ـ الفكر (مجلّة): عدد خاص بالشابي أفريل 1966.

ـ لوجون فيليب: أدب السيرة الذاتيّة في فرنسا: المفاهيم والتصوّرات. ترجمة ضحى شيحة، بغداد، الثقافة الأجنبيّة ع4، س 1984.

ـ الواد حسين: من قراءة النشأة إلى قراءة التقبّل. ضمن: القراءة والكتابة، جامعة تونس الأولى، كلية الآداب، 1989.

2 - بالألسنـة الأجنبيّـة:

أ ـ الكتـب:

- Blanchot Maurice: Le livre à venir. Paris, Gallimard, 1971.

- Bourneuf ®…: L'univers du roman, Paris, P.U.F, 1975.

- Combe Dominique: Les genres Littéraires, Paris, Hachette, 1992.

- Didier Béatrice: Le journal intime, Paris, P.U.F, 1976.

- Ducrot (o.), et Todorov (T) : Dictionnaire encyclopédique des sciences du language, Paris, Seuil, 1972.

- Finley Moses.I: Mythe, Mémoire, Histoire: Les usages du passé, Paris, Flammarion, 1981

- Genette Gérard.

.Figure III. Seuil, 1972

Palimpsestes, Paris, Seuil, 1982

Seuils. Paris, Seuil, 1987

- Gérard Genette, Hans Robert Jauss… Téorie des genres, Paris, .Seuil, 1986

- .Girard Alain: Le journal intime. Paris, P.U.F, 1963

- Laroui Abdallah: Idéologie arabe contemporaine, Paris, Maspero, .1977

- :Le jeune Philipe

.L'autobiographie en France, Paris, ARNAUD colin, 1971

.Le pacte autobiographique, Paris, Seuil, 1975

.Je est un autre. Paris, Seuil, 1980

- .Le Goff jaques: (histoire et mémoire) Paris, Gallimard, 1988

- Lobet Marcel: Ecrivains en aveu: essais sur la confession littéraire, .Paris…, Gamier, 1962

- .May Georges: L'autobiographie, paris, P.U.F, 1979

- Meftah Tahar: Taha Husayn: sa critique littéraire et ses sources .françaises, Tunis, M.A.E, 1976

- .Moscovici Marie: L'écrit du temps, Paris, Minuit, 1982

- Schaeffer Jean Marie: Qu'est ce qu'un genre littéraire? Paris, Seuil, 1989.

ب ـ المقالات والفصـول:

- Baroni Raphaël : Histoires vécues, fictions, récits factuels, poétique N151- Sept 2007.

- Brus Elisabeth: L'autobiographie considérée comme acte littéraire, Poétique N° 17-1974.

- Beaujour Michel: Autobographie et autoportraie, poétique N° 32-1977.

- Coirault yves: Autobiographie et mémoires, Revue d'histoire littéraire de la France, LXXV 1975.

- Dodille Nobert: Biographies et autobiographie mêlées, Poétique N° 63-1985 .

- Ghazi M'hammed Farid: Le milieu zitounien de 1920 à 1933 et la formation de Chabbi, Tunis, Cahiers de Tunisie, N° 28-1959.

- Gusdorf Georges: de l'autobiographie initiatique à l'autobiographie genre littéraire. Revue d'histoire littéraire de la France Nov-Dec 1975.

- Rousset Jean: Le journal intime, texte sans destinataire? Poétique N° 56-1983.

- Starobinski Jean: Le style de l'autobiographie, Poétique N° 3-1970.

التقـويــم الذّاتـي

نقترح على الطلبة القيام بالأعمال التطبيقيّة التي خصّصنـاها لكلّ درس من دروس هذه الوحدة ليتمكّنوا من:

1 ـ الإلمام بمفاهيم المصطلحات المتعلّقة بحقل الشعريّة.

2 ـ التدرّب على تحليل النصوص السرديّة باعتماد هذا الزاد المعرفيّ.

3 ـ اختبار مدى تمثّلهم للوحدة بتحرير مقالات متعلّقة بفنّ المذكّرات.

- - - - -

الدرس الأوّل:

ـ ما هي قيمة المواثيق الأجناسيّة المتّصلة بالمتون السرديّة.

الدرس الثاني:

ـ ما هي العناصر الأساسيّة التي ينبغي اعتمادها لتحديد علاقات متون المذكّرات بجنسها الأدبيّ؟

الدرس الثالث:

ـ بوّب النصوص التي شكّلت عتبات "مذكّرات الشابي" وأبرز طريقة استغلالها لتصنيف تلك المدوّنة تصنيفا أجناسيّا.

الدرس الرابع:

ـ حدّد علاقات المصاحبات النصّيّة بمتون مذكّرات بيرم التونسي وبيّن قيمتها.

الدرس الخامس:

ـ كيف يمكن تمييز مذكّرات طه حسين من كتاب الأيّام بالاستناد إلى العلاقة النصّيّة المصاحبة؟

الدرس السادس:

دراسة نـصّ:

حلّل هذا النصّ واستخرج خصائصه الأجناسيّة بالاستناد إلى الدروس الستّة الأولى.

الأربعاء 1 جانفي 1930

في سكون اللّيل، ها أنا جالس وحدي، في هاته الغرفة الصامتة إلى مكتبي الحزين، أفكّر بأيّامي الماضية التي كفّنتها الدموع والأحزان... وأستعرض رسوم الحياة الخالية التي تناثرت من شريط لياليّ وأيّامي، وذهبت بها صروف الوجود إلى أودية النسيان البعيدة النائيـة.

أنـا جالس وحدي في سكون اللّيل، أستعرض رسوم الحياة، وأفتكر بأيّامي الجميلة الضائعة، وأستثير أرواح الموتى من رموس الدهور.

ها أنا أنظر إلى غيابـات الماضي وأحدّق بظلمات الأبد الغامض الرهيب.

ها أنا أنظر، فأرى صورا كثيرة تعاقبت على نفسي كغيوم الربيع، وتحرّكت حواليّ كأنسام الصباح، وتعانقت حول قلبي كأوراد الجبل... ثمّ أنظر فإذا رسوم غامضة مضطربة متقلّبة كأمواج البحار، وأطياف ملوّنة كقوس قزح، جميلة كقلب الربيع تمرّ أمامي ثمّ تختفي، وتراقص حواليّ ثمّ تبتعد، ثم تتوارى في أعماق الظلام الدامسة، وأرى أحلامـا صغيرة ناشئة تُغرّد كطيور الغابات، وتنمو نموّ الأعشاب، وتتفتّح تفتّح الورود، ثمّ تجفّ وتذبل وتتناثر فتذروهـا الرياح، ثمّ تضمحلّ وتتلاشى في سكون المنون.

ها أنا أنظر، فإذا أصحابي المتوفّون يعودون إلى الحياة ثانية كأجلّ وأجمل ما عرفتهم أوّل مرّة، وإذا بنفسي تمثّل معهم فصول الحياة الغابرة التي مثّلناهـا بالأمس وطوتها الدهور. وتنسى متاعب العيش وأحزان الحياة، وتحسب أنّها ما زالت تلك النفس التي عرفتها بالأمس مضحاكة فرحة كقبّرة الحقول، وتنسى أنّها قد أصبحت غريبة بين أشباح لا يفهمونها، وحيدة بين أنصاب جامدة تحرّكهم بواعث المادّة وشهوات الجسد، بعيدة جدّا عن ذلك الملإ السعيد الذي عرفته في عهدها الماضي والذي ضربت بينها وبينه صروف الحياة فاندفع في سبيل الخلود، فظلّت ههنا وحدها تندبهم وترثيهم.

ها هم أصدقاء طفولتي الحالمة الذين عرفتهم في بلاد كثيرة... ها هم يتراكضون بين المروج الخضراء ويجمعون باقات الشقيق والأقحوان، ثمّ يتسلّقون الجبال متتبّعين أعشاش الطيور الصيفيّة ومترنّمين بتلك الأغاني البريئة الطاهرة. ثمّ ها هم جالسون

على ضفاف الأنهار الجميلة الهادرة يبنون من الرمال بيوتـا مسقوفة بأعشاب الحقول. ثمّ ها هم ينقسمون إلى فريقين يطارد أحدهما الآخر. وهم يمثّلون رواية الحياة الكبرى التي تمثّلها الليالي دواما وهم لا يشعرون.

ثمّ ها هي تلك الريحانة الجميلة التي أنبتتهـا في سبيلي أنامل الحياة. ها هي تنظر إليّ بعينيها الجميلتين الحالمتين بأحلام الملائكة.

ثمّ تُشير إليّ براحتها الجميلة الساحرة وبأناملهـا الدقيقة الورديّة ثمّ ها هي تطبع على ثغري قبلة حلوة ساحرة بشفتيها المعسولتين برحيق الحيـاة.

ثمّ ها هو أبي ينظر إليّ بوجهه الباسم الضحوك، ومن عينيه تفيض عواطف الأبوّة الراحمة الحنون. وها هو يحادثني بصوته الهادئ الرزين. ثم ها هو يماشيني في ضواحي "زغوان"، ويصعد في سُبُل الجبل المحفوفة بأشجار الصنوبر ذي العطر الأريج. ثمّ ها هو يُشير بيده إلى تلك السهول المخضّرة المترامية، ومن بينها تتناثر كثير من الأكواخ الجميلة والقصور الأنيقة التي تشابه حمامات بيضاء واقفة بين المروج.

ثمّ ها أنـا أنظر فلا أجد شيئا ممّـا رأيتُ. لقد ذهبوا كلّهم إلى عالم الموت البعيد... وتفرّقوا شيعا في أودية المنون الصامتة. فما عدت أراهم حتى الأبد في مسالك هذا الوجود. وما عدت ألقاهم حتّى الموت في صحراء هذه الحياة. لقد احتجبوا عنّي حتّى الأبد وبقيتُ وحدي في هذا العالم، أناديهم من وراء الوجود. ولكن عبثا أدعو، فإنّهم بعيدون عنّي لا يسمعون نداء روحي، ولا صرخات قلبي الغريب... لقد ذهبوا كلّهم، وبقيتُ ههنـا وحدي أنا في وحدتي وانفرادي، في سكون الظـلام.

أبو القاسم الشابي: مذكّرات الشابي

ص ص 1-9

الدرس السابع:

ـ دراسة نصّ:

حلّل هذا النصّ وحدّد علاقته بجنس المذكّرات باعتماد خصائصه الأجناسيّة ومقاصد مؤلّفه.

مرسيليـــــا:

الأجانب الذين يزورون فرنسا لا يعرفون عن مرسيليا إلاّ القليل لأنّهم يمكثون فيها بضع ساعات أو أيّاما قليلة يمضونها كارهين. ولا يوجد عند الأجنبي الذي يمرّ بهذه المدينة فكرة حسنة عنها. فهي عنده ساحل مملوء بالأقذار والشرور كجميع السواحل والموانئ، غاية أهلها سحق كلّ أجنبيّ يمرّ منها. وهذا الظنّ يقوم في ذهن الأجانب لأنّهم يُقيمون أثناء وجودهم بهذه المدينة في بقعة واحدة وهي التي توجد فيها الفنادق القريبة من البحر ومكاتب السفر وقنصليّات الدّول وفيها تكثر السماسرة والتراجمة ووسطاء السوء والمحتالون وفيها الكثير من المتاجر والمطاعم ومحلاّت الحجامة. وأصحاب هذه المحلاّت غايتهم الأولى تصيّد الجانب وتفريغ جيوبهم. وفيها الحيّ الأسود المخيف المسمّى "فيوبور" الذي تعمره بضعة آلاف مومسة من أسفل طبقات العالم لكلّ واحدة خليل أو عدّة أخلاّء من الأشرار المجرمين. وتشاهد قطعانا من بحّارة عدن والإفريقيين والأرمن واليونان يسرحون في النهار متسكّعين وفي الليل سكارى معربدين.

وهذه هي كلّها مرسيليا في نظر الأجنبي المسافر الذي لا يعرفها جيّدا. ولكن هناك تسعة أعشار المدينة لا يعرفها من المسافرين إلاّ القليلُ وكلٌّ مفتون بها مشيد بحسنها وبهجتها. ومن هؤلاء المسافرين الرحّالة المرحوم رشاد بك صاحب كتاب "مشاهد الممالك". كتب عن مرسيليا على صفحات جريدة الأهرام نيفا وثلاثين مقالة: أيْ ما يُعادل تقريبا كتابه كلّه عن الممالك التي ساح فيها.

أقمت في مرسيليا خمسة أعوام وكتبت عنها جادّا وهازلا ولا أراني أسأم الكتابة عنها كلّما مرّ ذكرها بخاطري وأحسبُ القرّاء لا يسأمون ما أكتبه.

يُعجبك من هذه المدينة شمسها الساطعة حتى في فصول الأمطار والزوابع ونسيمها الذي يلقح الجسم بالصحّة والعافية فتشعر بالازدياد في قواك الحيويّة ورغبتك في الأكل والشرب وكلّ مشتهيات الحياة. وسكان المدينة جميعا يتمتّعون بأبدان خصبة فارهة

وعلى وجوههم ابتسامات البَطَر والتبجّح. وقد كانت الجنود المرسيليّة أثناء الحرب العُظمى في مقدّمة الجيش الفرنسي وأوّلَ من قابل الألمان في ميدان القتال. أمّا نساؤها فعلى جانب وافر من الجمال الذي لا يُرى في أيّ ناحية أخرى من فرنسا كلّها. ويمتزن على جمال الوجوه بجمال الأبدان وليونتها التي تنبّه كلّ كامن من الإحساس وتحرّك كلّ ساكن من الشعور. والجمال يوجد هناك في الطبقات السفلى أكثر من وجوده في غيرها. وقد ترى في سوق الخضار فتاة تبيع السمك وفي وسطها طرف من الخيش "الشيكارة" تحزّمت فوقها بحبل خشن وقدميها في حذاء من الخشب الغليظ، ولكن وسط هذه الأقذار يسطع وجه يحبّب إليك الخيش والحبال وناسج الخيش والحبال وذفر السمك وصيّاد السمك. وترى امرأة تبيع الفاكهة جالسة على صندوق من الخشب وأمامها أوعية من الفواكه والميزان العتيق الذي يُحمل باليد وهي على ما في جسمها من رزانة وامتلاء تتحرّك كلّ جارحة فيها بحركات سالبة موجبة خافضة رافعة فتجد أنت نفسك مندفعا إليها ولا حاجة لك بالشراء. وتراها وهي تدسّ لك الفواكه الفاسدة وتسرقك في الميزان وتغالطك في النقود ولا تجد ما تقوله لها غير الشكر والرضى. وقيامة الجمال الكبرى تقوم كلّ يوم من الساعة السادسة مساء إلى الثامنة حيث تخرج عاملاتُ المحلاّت التجارية وموظّفات البنوك والشركات فيُرينك الأمثلة العليا من الجمال الذي أبدعه الله، الجمال الصريح الذي لا دِهان فيه ولا غشّ. والدلال الطبيعيّ الذي لا صناعة فيه ولا تكلّف. وأكبرُ ممرّ تستطيع فيه استعراض هذه المخلوقات الفاتنة هو شارع "سان فريول" حيث يسيل جانباه بجيوش الظباء رائحات غاديات أو واقفات يتبادلن قبُلات الوداع أو ينتظرن الأحباب والأصدقاء. ولنساء كلّ إقليم شيء يميّزهنّ، فنقول إنّ النرمانديّة أو البريطونية يُلاحظُ فيها استطالة الوجه ودقّة الأنف وصفرة الشعر، والليونيّة بمرونة الخصر وجمال المشية. وساكنات الآلب برشاقة القامة ودعج العيون مع اللون الخمري المسكر. أمّا مرسيليتنا فقد وهبتها الطبيعة ردفا ضخما يهتزّ من أعلى إلى أسفل متخالفا ويلتوي من اليمين إلى اليسار متعاطفا. ويلعب فيثير الجدّ بلعبه. ويجدّ فتجدّ النفوس في طلبه، وفيه يقول أحد شعراء العرب:

يَنتاب نسوة مرسيليا إذا نهضت   لحاجة خصلتان: الوهنُ والكسلُ

إذ هنّ دون نساء النّاس قاطبة   بثقل أردافهنّ يُضرب المثلُ

ولكلّ مرسيليّة مهما كانت نحافتها وبدانتها وعمرها وأصلها وفصلها، ردفٌ من هذا النوع. فإن وجدت امرأة لا ردفَ لها فاعلم أنّها أجنبيّة عن المدينة.

وإذا أدرت أن يذهب عقلك تماما فاقصد في الصيف الحمامات البحريّة "كاتالان" و"روكاسبلان" فهنّ هناك متجرّدات تماثيل من صنع المثال الأكبر سبحانه وتعالى. هذه منبطحة على وجهها تعبث في الرمال وتلك منحنية على طفلها تُصلح له ملابسه وأخرى تتلألأ في صفحة الماء الزرقاء والناس جميعا على هذا الشاطئ متساوون في الإنسانيّة عراة الأجسام لا غنيّ ولا فقير ولا عظيم ولا صغير. وأنت واحد منهم.

"حدث أنّ فتاة كانت واقفة في الماء لا يظهر إلاّ نصفها الأعلى وكان على مقربة منها فتى برنزي الجسم طويل القامة بارز العضلات في وجهه الضامر غضون تدلّ على الشراسة والقسوة وقد تشعّث شعره المبلّل فزاده خشونة وجهامة وجعل ينظر إليها نظرة صريحة فنكصت راجعة إلى الشاطئ وعندئذ ظهر نصفها الأسفل الذي كان يحجبه الماء فرأى الفتى تلك الموهبة المرسيليّة فتبعها إلى الشاطئ وأخذ مجلسه قريبا منها وبدأت هي تتقلّب على الرمل بأشكال مختلفة وهو جالس أمامها كالهرّ في شهر شباط. وما زال بها حتّى كلّمها وقام الاثنان إلى الماء وسبحا حتى بعدا عن مزدحم الأجسام. وإذا كان الرجل والمرأة يحسنان السباحة فهناك خير عظيم. وقد احتجب جسداهما في الماء ولم يظهر غير الرأسين. وقد تقابل الرأسان ولا يلزمك الكثير من الذكاء لتقول وتقابل الجسدان أيضا. ومكثا برهة طويلة لا يتحرّكان. فماذا يفعلان؟ قل الله أعلمُ. وقد خرجا من الماء وجفّفا الأجساد بحرارة الشمس فرجع النشاط إلى السباحة. فرجعا إلى الماء. وهكذا إلى أن انقضى يومهما وغابت الشمس فتواعدا على اللقاء خارج الحمّام. وخرجت الفتاة في ثوب من الحرير الأزرق الهفّاف وتُحيط بوجهها الوردي قبّعة شمسيّة بيضاء وتحت إبطها الحقيبة السوداء الفخمة التي تحوي أدوات الاستحمام، وبينما هي واقفة تنظر في ساعتها المحيطة بمعصمها الرخص إذ دنا منها شخص في بدلة قديمة من القماش الأزرق الذي يرتديه العمّال وعلى ركبته في بنطلونه رقعة جديدة مساحتها 150 ميليمترا مربعا على الأقلّ وعلى رأسه شاشيّة جزائريّة قُرصها أبيض أجرب وسورها أحمرُ على أصله وحافتها سوداء مُزْنَخَةٌ لامعة فانخلع قلبها ووضعت يدها على فمها وقفزت إلى الترام...

محمود بيرم التونسي: مذكّراتي

ص ص 35-38

الدرس الثامن:

مـقـال:

قال بعضهم "تتعاضد أشكال مذكّرات الشابي ومحتوياتها السرديّة على دعم صلتها بجنس اليوميّات الخاصّة".

ـ حلّل هذا القول وأبد رأيك فيه باعتماد شواهد دقيقة.

الدرس التاسع:

ـ استخرج العناصر الأجناسيّة المهيمنة على مذكّرات طه حسين وحدّد دورها في مساعدة الدّارسين على ربط متنها السرديّ بجنسه الأدبيّ.

الدرس العاشر:

ـ ما هو مدى تأثير دافع الشهادة في نشأة مذكّرات الشابي المنتمية إلى جنس اليوميّـات الخاصّة؟

الدرس الحادي عشر:

مـقـال:

قال بعضهم "اختلفت سلاسل مذكّرات بيرم التونسي بنية ودلالة باختلاف دوافع كتابتها".

ـ حلّل هذا القول وأبد رأيك فيه باعتماد شواهد دقيقة.

الدرس الثاني عشر:

دراسة نصّ:

حدّد علاقة هذا النصّ بجنس المذكّرات واستخلص مقاصد مؤلّفه باعتماد المحتوى السرديّ والشكل الفنّيّ:

قصّة حُبّ:

كانت حياة الفتى في باريس حلوة مرّة ويسيرة عسيرة، لم يعرف فيها سعة ولا دعة، ولكنه ذاق فيها من نعمة النفس وراحة القلب ورضى الضمير مالم يعرفه من قبل ومالم ينسه قطّ. كانت حياته المادية شاقة، ولكنه احتمل مشقتها في شجاعة ورضى واسماح، لم يكن مرتبة يتجاوز ثلثمائة من الفرنكات، كان يدفع ثلثيه في اليوم الأول أو الثاني من

كل شهر، ثمنا لمسنكه وطعامه وشرابه، وكان يدفع نصف الثلث الذي كان يبقى له أجرا لسيدة كانت تصحبه إلى السوربون مصبحا وممسيا ليسمع فيها دروس التاريخ على اختلافها، وتقرأ له بين ذلك ما شاء الله من الكتب حين لا يخلو له ذلك الصوت العذب الذي كان قد رتّب له ساعات بعينها في النهار ليقرأ له فيها روائع الأدب الفرنسي، وكان يستبقي فضل مرتّبه بعد ذلك لينفق منه على ما يعرض من حاجاته اليوميّة. فأمّا أمر كسوته فقد تركه إلى الله لأنّ مرتبه لم يكن يتسع له.

وأنفق السنة الأولى من حياته في باريس لا يخرج من بيته إلا إلى السوربون. فكان سجينا أو كالسجين لم يذكر قطّ أنّه خرج من باريس إلى ضاحية من ضواحيها في أيّام الراحة التي كان رفاقه ينفقون فيها أيّام الآحاد، ولم يذكر قطّ أنّه اختلف إلى قهوة من قهوات الحيّ اللاتيني التي كان رفاقه الجادّون يلمّون بها بين حين وحين، وكان أكثر الطلاّب المصريين يختلفون إليها أكثر ممّا كانوا يختلفون إلى الجامعة، وإنّما كان يلزم بيته في أيّام الراحة لا يفارقه وربّما خلا إلى نفسه اليوم كله في غرفته، إلاّ أن يلم به ذلك الصوت العذب فيقضي معه ساعة من نهار.

وكان يسمع أنباء المسارح ومعاهد الموسيقى واللهو، وكانت نفسه ربما نازعته إلى بعض هذه المسارح ليسمع هذه القصة أو تلك، ولكنه كان يردّ نفسه في يسر إلى القناعة والرضى. وكيف السبيل إلى غير ذلك وهو لا يستطيع أن يذهب وحده إلى حيث يريد ولا يستطيع أن يدعو غيره إلى مرافقته، ولا يريد أن يكلف غيره من الناس عناء مرافقته من جهة وتحمّل ما تقتضيه هذه المرافقة من النفقات من جهة أخرى، ولم تكن ذكرى أبي العلاء تفارقه في لحظة من لحظات اليقظة إلا أن يشعل عنها بالاستماع إلى الدرس أو إلى القراءة. كان يذكر دائما قول أبي العلاء في آخر كتاب من كتبه أنّه رجل مستطيع بغيره، وكان يرى نفسه مستطيعا بغيره دائما، ويحتمل في سبيل ذلك من غيره هذا الذي يتيح له الاستطاعة ألوانا من المشقّة وفنونا من الأذى دون أن ينكر منها شيئا، فهو مكره على احتمالها إكراها، وهو مخيّر بين أن يقبل ما يكره من غيره من الذين كانوا يعينونه على ما يريد أو يرفضه فيضطر إلى العجز المطلق اضطرارا، ويضيع حياته في باريس بل حياته كلها في باريس أو غير باريس. وكيف السبيل له إلى أن يذهب إلى السوربون ليسمع الدروس فيها إذا لم تعنه على ذلك هذه السيدة التي لم يكن من معونتها بدّ. والتي كانت ترفق به أحيانا وتعنف به أحيانا أخرى، وربما صحبته من البيت إلى الجامعة دون أن تلقي إليه كلمة أو يسمع لها صوتا، وإنّما كانت تعطيه ذراعها وتمضي معه صامتة كأنّما كانت تجرّ متاعا لا ينطق ولا يفكّر ، حتى إذا بلغت قاعة الدرس أجلسته إلى مائدة من موائدها، وانصرفت عنه إلى خارج القاعة فانتظرت حتّى

إذا فرغ الأستاذ من درسه أقبلت عليه فأقامته من مجلسه، ومضت به إلى بيته، حتّى إذا انتهت به إلى غرفته أدخلته فيها وأغلقت من دونه الباب، وهي تقول له في صوت خاطف: "إلى اللقاء في ساعة كذا من النهار".

وربما اعتذرت هذه السيدة من مهمّتها بعد أن تجد له سيدة أخرى تقوم مقامها، فكانت هذه السيدة الثانية ثرثارة تؤذيه بحديثها المتّصل أكثر ممّا كانت تلك تؤذيه بصمتها الملحّ..

على أن عجز الفتى لم يكن مقصورا على ذهابه إلى الجامعة وعودته منها، وإنّما كان عامّا شاملا يمسّ الفتى في أشدّ الأشياء لزوما له، فهو كان يستحي من كلّ شيء ويكره أن يثير الضحك منه أو الرثاء له والإشفاق عليه. وكان شرطه حين سكن في البيت الذي أقام فيه ألاّ يشارك أهله في طعامهم، وإنّما يخلو إلى طعامه الذي يحبّ أن يحمل إليه في غرفته حين يأتي وقته، فكان الطعام يحمل إليه ويوضع بين يديه ثم يخلى بينه وبينه فيصيب منه ما يستطيع لا ما يريد. يحسن ذلك أحيانا ويخطئه أحيانا أخرى وربما وضع بين يديه من ألوان الطعام ما لا يحسن تناوله فيتركه مؤثرا العافية، محتملا في سبيلها ما قد يتعرض له أحيانا من ألم الجوع.

وظلّ الفتى على هذه الحال شهورا، ولكن الله وفق به بعد ذلك فأتاح له من كان يهيئ له طعامه ويعلمه كيف يرضى منه حاجته.

واتّخذ الفتى زيّ الأوروبيين، وما أسرع ما تعلم الدخول فيه والخروج منه، إلاّ شيئا واحدا لم يحسنه أعواما طوالا، وهو هذا الرباط السخيف الذي يديره الناس حول أعناقهم ثم يعقدونه بعد ذلك من أمام عقدة يتأنّقون فيها قليلا أو كثيرا!

لم يفتح الله على صاحبنا بتعلّم هذا الجزء من زيّه، فكان أخوه يدير له هذا الرباط حول عنقه ما عاشا معا في مونبلييه.

فلمّا افترقا حار الفتى في أمره، ولكنّ صديقه الدرعمي أخرجه من هذه الحيره، واشترى له أربطة مهيّأة لا تحتاج إلى عناء، وإنّما تدار حول العنق في يسر ويجمع بين طرفيها في يسر أيضا، وقد هيّئت عقدتها فليس محتاجا إلى أن يتكلّف عقدها وتسويتها والتأنّق القليل أو الكثير فيها، ولكنه كان مضطرا إلى أن لا يفكّر مطلقا في الملاءمة بين هذه الأربطة وبين ما كان يتّخذ من ثياب. وربّما اتّخذ منها رباطا واحدا يديره حول عنقه في كل يوم ويمضي على ذلك الأسابيع المتصلة، وربما لاحظ هذا الرفيق أو ذاك من رفاقه اختلافا بين ثوبه ورباط عنقه، وربما أعانه صديقه الدرعمي فتقدّم إليه في أن يغيّر

هذا الرباط واختار له ما يلائم زيّه ممّا كان عنده من هذا السخف الذي لم يفهم له معنى قطّ.

وكذلك عاش الفتى عامه الأوّل أو أكثر هذا العام، مضطربا في هذه الحياة المادية المختلطة المعقّدة من جميع نواحيها. وربما كان يجد بعض الألم في ذلك، ولكنه كان يمرّ به مرّا سريعا لا يقف عنده ولا يفكر فيه إلاّ قليلا. كان يعزّيه عن ذلك إقباله على الدرس، وإحساسه الانتفاع به والتقدّم فيه وشعوره بأنّه قد أخذ يفهم الفرنسيّة في غير مشقة ولا عسر، ويقرأ كتاب التاريخ والأدب والفلسفة، فلا يجد في فهمها جهدا ولا عناء، قد انقطع لذلك انقطاعا تامّا فهان عليه منه ما كان صعبا ويسّر له منه ما كان عسيرا.

ولم تكن حياته العقلية أقلّ تعقيدا والتواء من حياته الماديّة، فلم يكد يختلف إلى دروس التاريخ والأدب في السوربون حتّى أحسّ أنّه لم يكن قد هيئ لها، وأنّه لا يفهمها ولا يسيغها كما كان ينبغي أن تفهم وتساغ، وأنّ درسه الطويل في الأزهر وفي الجامعة لم يهيّئه للانتفاع بهذه الدروس.

وكانت آماله عراضا فكان ينبغي أن يتّخذ إليها أسبابها، وأوّل هذه الأسباب أن يعدّ نفسه لفهم الدروس التي تلقى في الجامعة، وسبيل هذا الإعداد أن يقرأ في أقصر وقت ممكن ما كان التلاميذ الفرنسيون ينفقون الأعوام الطوال في درسه بمدارسهم الثانويّة. فليس له بدّ إذن من أن يكون تلميذا ثانويّا إذا آوى إلى بيته، وطالبا جامعيّـا إذا اختلف إلى دروس السوربون.

وما أسرع ما نظر في برنامج المدارس الثانوية الفرنسيّة، واستخلص منه ما يحتاج إليه، وأزمع أن يدرس منه التاريخ والجغرافيا والفلسفة، وهذه الخلاصات الموجزة التي كانت تلقى إلى التلاميذ عن الآداب الأجنبيّة الأوروبية قديمها وحديثها. وقد أقبل على ذلك كلّه في عزم لا يعرف الضعف، وتصميم لا يعرف التردّد ولا الفتور. واستطاع في وقت قصير أن يحصل من هذا كلّه ما يحصله التلميذ الذي كان يتقدّم إلى الشهادة الثانوية مطمئنّـا إلى أن الممتحنين لن يردّوه عن هذه الشهادة خزيان أسفا.

واستقامت له دروسه في السوربون فجعل يفهمها ويسيغها كما كان يفهمها ويسيغها زملاؤه الفرنسيون. واختار لنفسه أستاذا من أساتذة المدارس الثانوية يعلّمه اللغة الفرنسيّة تعليما منظّما، فلم يكن يكفيه أن يفهم إذا سمع، وأن يفهم الناس عنه إذا تحدّث إليهم، وإنّما كان يجب عليه أن يحسن العلم بحقائق هذه اللغة ودقائقها وأن يكتبها كتابة لا تنبو عمن يقرأها.

وكان يقدّر أن الأساتذة في السوربون، سيكلفونه بعض الواجبات المكتوبة، كما كانوا يكلفون غيره من الطلاب. فلم يكن له بدّ إذن من أن يتهيّأ لتحرير هذه الواجبات حين تطلب إليه على وجه لا يعرضه للسخرية والازدراء. وما أكثر ما كان الأساتذة يسخرون من طلاّبهم إذا كتبوا الواجبات فقصّروا في بعض نواحيها. وكان الأساتذة يقرأون بعض هذه الواجبات، يختارون من بينها للقراءة أشدّهـا تعرّضا للنقد، ثمّ يأخذون في هذا النقد على نحو لاذع ممض يحرّضون به الطلاب على أن يحسنوا العناية حين يكتبون. وكانت سخريتهم بالمقصّرين تضحك الزملاء، وتخرجهم أحيانـا عن أطوارهم.

فكره الفتى أن يتعرّض لبعض هذه السخرية، ولكنه تعرّض ذات يوم لشرّ منها. كلّفه أستاذ تاريخ الثورة الفرنسيّة فيمن كلّف من زملائه كتابة موضوع عن الحياة الحزبيّة في فرنسـا بعد سقوط نابليون، فأقبل على هذا الموضوع فدرسه كما استطاع في الكتب التي نبّه إليها الأستاذ، وفكّر فيه كما استطاع أيضا. ثمّ كتب عنه ما أتيح له أن يكتب وقدّمه إلى الأستاذ في اليوم الموعود. وجاء يوم النقد فاستعرض الأستاذ ما قدّم إليه من الواجبات ناقدا ساخرا مندّدا متندّرا موبّخـا بعض الطلاب أحيانا، حتّى إذا ذكر اسم الفتى لم يزد على أن ألقى إليه واجبه معقّبا بهذه الجملة المرّة التي لم ينسها قطّ: "سطحيّ لا يستحقّ النقد". وكان لهذه الكلمة وقع لاذع في نفس الفتى أمضّه بقيّة يومه وأقضّ مضجعه حين أقبل الليل. وأشعره بأنّه لم يتهيّأ بعد كما ينبغي ليكون طالبا في السوربون، فألحّ في درس الفرنسيّة وكلّف نفسه في هذا الدرس من الجهد الثقيل والعناء المتّصل ما كاد يصرفه عن غيره من الدروس. وأعرض عن المشاركة في كتابة الواجبات حتّى تتمّ له أداة هذه الكتابة وهي اللغة الفرنسيّة.

وبينما كان الفتى يمتحن بأثقال هذه الحياة الماديّة والعقليّة العسيرة، مجاهدا ما استطاع الجهاد، مروعا بين حين وحين بهذا اليأس الذي كان يتراءى له من وقت إلى وقت فيشقيه ويضنيه، فتح له باب من أبواب الأمل لم يكن يقدّر أنّه سيفتح له في يوم من الأيّام. ألمّت علة طارئة بصاحبة ذلك الصوت العذب الذي كان نعيمه الوحيد في حياته الشاقة المظلمة، فأقبل يعودها وجلس يتحدّث إليها، ثمّ لم يدر كيف التوى به الحديث، ولكنه سمع نفسه يلقي إليها في صوت أنكره هو قبل أن تنكره هي: أنّه يحبّها.

ثمّ سمعها تجيبه بأنّها هي لا تحبّه.

قال:

ـ وأيّ بأس بذلك؟

إنّه لا يريد لحبّه صدى ولا جوابا وإنّما يحبّها وحسب.

فلم تجبه، وغيّرت مجرى الحديث، وانصرف عنها بعد ساعة، وقد استقرّ في نفسه أنّ حياته ستسلك منذ ذلك اليوم طريقا جديدة.

وليس من شكّ في أنّ نفسه كانت قد تعلّقت بذلك الصوت العذب ثمّ بصاحبته منذ وقت طويل.. وإلاّ فما جزعه حين اضطرّ إلى العودة إلى مصر؟.. وما ابتهاجه بهذه الرسائل التي كانت تصل إليه؟.. وما شوقه العنيف إلى العودة إلى فرنسا ليسمع فيها ذلك الصوت؟.. وما خروجه عن طوره حين وجد الرسالتين اللتين كانتا تنتظرانه في نابولي؟.. وما إلحاحه على صاحبه الدرعمي في أن يقرأ عليه هاتين الرسالتين مرّة ومرّة حتّى أملّه؟... ثمّ ما حرصه على أن يسمع هذا الصوت في باريس؟.. وما نزوله في بيته ذاك الذي كان يسمع فيه هذا الصوت يتردّد في كلّ ساعة من ساعات النهار، ويلقي فيه صاحبة الصوت حين يريد لقاءها دون أن يتكلّف لذلك جهدا أو سعيا أو انتظارا.. وما سعادته بأنّه كان يقيم في هذا البيت غير بعيد من ذلك الشخص الذي كان يلقي عليه تحيّة الصباح حين يخرج من غرفته، ذاهبا إلى السوربون ويلقي عليه تحيّة المساء، حين يتقدّم الليل ويأوي أهل البيت إلى مضاجعهم. ويقرأ عليه بين ذلك ما شاء الله من آيات الأدب الفرنسيّ؟

ولكن حبّه كان يستحي حتّى من نفسه فينكرها، وكان الفتى يخفي شعوره ذاك في أبعد ما يمكن أن يستقرّ من أعماق ضميره، ويكره أن يتحدّث به إلى نفسه، وقد استقين أنّه لم يخلق لمثل هذا الشعور وأنّ مثل هذا الشعور لم يخلق له.. وأين هو من الحبّ؟ وأين الحبّ منه؟

إنّما كتب عليه أن يعيش كما عاش مثله الأعلى ذلك الذي وقف حياته منذ قرون طوال في دار من دور المعرّة على الدرس ممعنا فيه، غير معنيّ إلاّ به، محرّما على نفسه ما أباح الله للناس من طيّبات الحياة..

كان الفتى يطوي نفسه على شعوره ذلك يائسا منه ومن عواقبه، راضيا بما أتاح له من سماع ذلك الصوت ومن الحديث إلى صاحبته حين يتاح له الحديث إليها، واثقا بأنّ هذا أقصى ما يمكن أن يساق إليه من النعيم.. غير طامع في أكثر منه.. وكان واجدا على الحياة والظروف لأنّها تحول بينه وبين أكثر منه.

ولكنّ العلّة الطارئة التي ألمّت بصاحبته والصوت العذب الذي أدركه الضعف وشاع فيه الفتور والإشفاق من الألم والجهد، على ما كان يكره له أن يحسّ الألم أو يحمل ثقل

الجهد، كل ذلك ملك عليه أمره وملأ عليه قلبه وأنساه تحفظه وتحرّجه، وأجرى على لسانه تلك الكلمة التي أنكرها. وليس غريبا بعد ذلك أنّه لم يجد حزنا ولا شقاء ولم يحسّ لوعة ولا ألما حين بلغ مسمعه الردّ على كلمته تلك موئسا مقنطا. فهو لم يكن ينتظر إلاّ اليأس والقنوط، قد وطّن نفسه عليهما وعزّى نفسه عنهما بما كان يمعن فيه من الدرس والتحصيل.

وهو قد انصرف عن صاحبته في ذلك اليوم راضيا عن نفسه ساخطا عليها.

راضيا عنها لأنّها قالت ما لم يكن بدّ من أن يقال.

ساخطا عليها لأنها عرّضته بهذه الكلمة لشرّ عظيم، فهي قد عرّضته لإشفاق تلك الفتاة عليه ورثائها له وضيقها به. ومن يدري لعلها تريد أن تصرفها عنه صرفا، وأن تلقي بينها وبينه حجابا يقطع تلك الأسباب العذاب التي كانت تتيح لهما اللقاء والاستمتاع العقلي والشعوري بما كانا يقرآن معا من آيات الأدب الفرنسي.

ومن يدري لعلّ هذه الكلمة التي ألقاها في غير تدبّر وعن غير إرادة أن تردّه إلى تلك الظلمة التي ظنّ أنّه قد خرج منها. وأن تضطرّه في يوم قريب أو بعيد إلى أن يترك ذلك البيت ويلتمس له مسكنا آخر لا يسمع فيه ذلك الصّوت ولا يلقى فيه ذلك الشخص ولا يجد فيه شعور الرضى والنعيم.. وإنّما يجد فيه شعورا آخر كلّه سخط مرّ وحزن ممضّ وألم مفسد للحياة.

عاش صاحبنا بين هذا السخط وذلك الرضى أيّاما لم يكد ينتفع فيها بقراءة أو درس ولم يكد يذوق فيها للحياة طعما.

ولكنه يلقى صاحبته بعد أن انجلت عنها غمرة العلة، فإذا هي كعهده بها لم تتغيّر، لم تزدد إقبالا عليه، ولم يجد منها إعراضا عنه ولا نفورا منه، وإنّما هي تلقاه كما تعوّدت أن تلقاه رفيقة به عطوفا عليه، وتقرأ له كما تعوّدت أن تقرأ له، وتبين له ما يشكل عليه أثناء القراءة، كما تعوّدت أن تفعل من قبل، فيردّه ذلك إلى شيء من الأمن، ثمّ إلى شيء من الدعة وراحة البال، وتنقضي أيّام، وإذا ذلك الشعور الخفيّ العميق الذي ظهر فجأة في ساعة من الساعات ثم استحيا وعاد إلى مستقرّه ذلك من أعماق الضمير، يظهر مرة أخرى ولكن في تحفّظ وتردّد وأناة، لا يتحدّث إلى الفتاة بشيء ولا يتحدّث إلى الفتى بشيء حين يلقاها وإنّما يكمن في مستقرّه من أعماق الضمير.

حتّى إذا تقدّم الليل وخلا صاحبنا إلى نفسه وهمّ أن يستقبل النوم خرج ذلك الشعور من مكمنه وذاد النوم عن صاحبه وجعل يسامره حتّى يوشك الصبح أن يسفر ثمّ يعود إلى مكمنه ذاك ويسلم الفتى إلى نوم قصير.

ولم تلبث آثار هذا الأرق المتّصل أن تظهر وأن يلحظها أهل البيت، وتلحظها معهم ذات الصوت العذب، وهم يسألونه عن أمره فيلتوي بالجواب وهم يريدون أن يعرضوه على الطبيب فلا يستجيب لما يريدونه وإنّما يزعم لهم أن ليس به بأس.

وما يزال هذا شأنه حتّى يظهر عليه بعض الضرّ. وتسأله الفتاة ذات يوم وقد خلت إليه تقرأ عليه بعض ما كانا يقرآن، فيريد أن يلتوي بالجواب، فتلحّ عليه وإذا هو ينبئها مريدا أو غير مريد بأمره كلّه.

فتسمع له ثمّ تسكت عنه ثمّ تأخذ في القراءة حتى إذا أتمّتها وهمّت أن تنصرف قالت له في رفق:

ـ وإذن فماذا تريد؟

قال الفتى:

ـ لا أريد شيئا.

قالت:

ـ فإنّي قد فكّرت فيما أنبأتني به وأطلت فيه التفكير ولم أنته بعد إلى شيء، وقد أوشك الصيف أن يظلنا وسنفترق، فأصبر حتّى إذا كان افتراقنا فستتصل بيننا الرسائل كما تعوّدنا أن نفعل. فإذا قرأت في بعض رسائلي أنّي أدعوك إلى أن تتفق معنا بقية الصيف فاعلم أنّي قد أجبتك إلى ما تريد وإن لم تقرأ هذه الدعوة حتى ينقضي الصيف فاعلم إنّها الصداقة بينك وبيني ليس غير.

ولم يسعد الفتى بشيء قطّ كما سعد بها الحديث، وكانت آية سعادته أنّه أطرق ولم يقل شيئا.

وأقبل الصيف وكان الافتراق، ذهبت هي إلى قرية في أقصى الجنوب.. وأقام هو في باريس واتصلت بينهما الرسائل ولكنها قبل أن تفارقه كلّفت زميلة لها أن تكون هي الكاتبة القارئة لرسائلهما حتّى لا يطّلع على هذه الرسائل زميل من زملائه.

واتّصل الفراق شهرا.. ولكنّ رسالة تصل إليه في آخر هذا الشهر وفيها الدعوة المرتقبة إلى أن يقضي معها ومع أسرتهـا بقيّة الصيف .. وإذن فقد تحقق أمله، أو كاد أن يتحقّق، وهو يعلن إلى زملائه المصريين أنّه سيترك باريس إلى حيث يقضي الصيف مع تلك الأسرة وهم يصدّونه عن ذلك مشفقين عليه.

ولكنه مصرّ على ما أراد، فيصحبه صديقه الدرعمي ذات مساء إلى حيث يضعه في القطار ويوصي به بعض من فيه.. وينصرف عنه ويدعه وحيدا. وينفق الفتى ليـلا في القطار، لا يدري أقصر أم طال لأنّه لم يفكّر أثناءه إلاّ في هذا اللقـاء الذي سيكون حين يرتفع الضحى ويبلغ القطار غايته، وإذا الصوت العذب يدعو صاحبنـا في رفق وعطف وحنان ويشعر بأنّه منذ اليوم سيخلق خلقـا جديدا.

طه حسين: مذكّرات طه حسين

ص ص 165 -175

الدرس الثالث عشر:

ـ هل يمكن اعتبار دافع التبرير من العوامل الرئيسيّة المولّدة لمذكّرات الأدباء الأعلام بالاستناد إلى المدوّنة المعتمدة في هذه الوحدة؟

مشروع إصلاح التقويم الذاتي

الدرس الأوّل:

ـ تتضمّن المصاحبات النصّيّة مواثيق أجناسيّة مؤثّرة في عمليّة التقبّل. وقد تضطلع بعض أقسام النصوص السرديّـة بوظيفة نصيّة مصاحبة، عندما تعلن عن مواثيق أجناسيّة.

ـ المواثيق الأجناسيّة من العلامات التي تحدّد أفق انتظار القارئ.

ـ غير أنّ المواثيق الأجناسيّة لا تُغني عن ضرورة استخلاص خصائص المتون السرديّة وضبط علاقاتها بأجناسها الأدبيّة، نظرا إلى أنّ المؤلّفين قد لا يحقّقون القصديّات الأجناسيّة التي يعلنون عنها.

الدرس الثاني:

* يتعيّن على الدارس:

ـ إمعان النظر في المصاحبات النصيّة لضبط الميثاق الأجناسيّ وتحديد القصديّة الأجناسيّة.

ـ اختبار ما أبانت عنه المصاحبات النصيّة بتحليل المتون للتثبّت من اتّحاد أعوان السرد وانتماء الحكي إلى حقل الحكي الحقيقيّ.

ـ الوقوف على النظم الأجناسيّة لإبراز أنّ العناصر الأجناسيّة التي تنهض عليها طبقة نصوص المذكّرات هي التي هيمنت على بقيّة العناصر هيمنة كيفيّة.

ـ تبيّن مدى خضوع المدوّنة للدوافع الرئيسيّة التي تُولّد المذكّرات.

الدرس الثالث:

*النصوص المشكّلة لعتبات "مذكّرات الشابي" هي: العنوان الرئيسيّ ـ العناوين الفرعيّة ـ الرسائل التي أعرب فيها الشابي عن مواقفه من الجمهور وبلور في غضونها نظرته إلى الوجود ـ النصوص المتّصلة بسيرة حياته...

* العنوان الرئيسيّ يُشير إلى صلة المتن بجنس المذكّرات.

* العناوين الفرعيّة تضطلع بوظيفة أجناسيّة لدلالتها على انتماء كلّ فصول الكتاب إلى جنس اليوميّـات الخاصّة.

* الرسائل وسيرة حياة الشابي تدلّ على أنّه مرّ خلال فترة التدوين بأزمة حادّة نفّرته من كتابة الشعر ودفعته إلى الانطواء على ذاته فحاول التخلّص من هواجسه وأزمته بتدوين يوميّاته.

* بكلّ هذا يتّضح انقطاع صلة تلك النصوص بجنس المذكّرات وانتماؤها إلى جنس اليوميّات الخاصّة.

الدرس الرابع:

ـ عناوين مذكّرات بيرم وعوامل نشأتها تكشف عن مقاصد المؤلّف وتبرّر اختلاف محتوياتها وتمثّل منفذا إلى خطابها.

ـ أمّا علاقات المصاحبات النصيّة بمتونها فتشكّل إحدى علاقات التعالي النصيّ الدالّة على شعريّة المذكّرات.

الدرس الخامس:

ـ العنوان الرئيسيّ لكتاب طه حسين الموسوم بـ "مذكّرات طه حسين" يضطلع بوظيفة أجناسيّة، نظرا إلى انطوائه على ميثاق أجناسيّ دالّ على أنّ مقصديّة المؤلّف تعلّقت بكتابة مذكّراته.

ـ عناوين الفصول تكشف عن تعلّق كلّ فصل منها بمسألة مخصوصة وتثبت اتّحاد الكاتب الراوي بالشخصيّة الرئيسيّة، ممّا يدعم صلتها بالحكي الحقيقيّ وانتماءها إلى جنس المذكّرات.

ـ أمّا العنوان الرئيسيّ لكتاب الأيّام وأرقام فصوله، فإنّها لا تتضمّن ميثاقا أجناسيّا وتحجب صلة المتن بحياة طه حسين.

ـ ولمّا كانت سيرة طه حسين وعوامل نشأة "الأيّام" ناهضة بوظيفة نصيّة مصاحبة، فإنّ الاستناد إليها يثبت صلة المتن بجنس السيرة الذاتيّة.

الدرس السادس:

ـ العنوان الرئيسيّ: مذكّرات (انتماء إلى الحكي الحقيقيّ).

ـ العنوان الفرعي: يشير إلى أنّ زمن التدوين هو زمن التجربة (وظيفة أجناسيّة).

ـ وبما أنّ حلقات الكتاب خضعت لتسلسل زمنيّ وأثبتت تعلّق كلّ حلقة بيوم معيّن، فإنّ ذلك يدعم صلتها باليوميّـات الخاصّة.

ـ اتّحاد أعوان السرد.

ـ المحتـوى: كشف عن مكان التدوين وزمنه وصوّر علاقات الكاتب الراوي ببقيّة الشخصيّات ودلّ على هواجسه وعلى أسباب أزمته.

ـ هكذا هيمنت العناصر الأجناسيّة المميّزة لليوميّات على جميع أركان المتن وأبانت عن أنّ الذكريات المتعلّقة بأوقات ماضيه خامرت المؤلّف لحظة التدوين، مثبتة بذلك أنّ الحالة النفسانيّة والوجوديّة الراهنة هي التي فجّرت تلك الذكريات.

ـ فالشعور بالوحدة والوحشة عمّق حنين المؤلّف إلى ماضيه السعيد وحمله على ملء الفراغ الأدبيّ بتدوين يوميّاته الخاصّة التي لم يعتبرها من قبيل الأدب.

الدرس السابع:

ـ العتبـات:

العنوان: مرسيليا (وظيفة غرضيّة: محتوى النصّ).

مكان النشر: تونس سنة 1933، أي بعد 10 سنوات من تاريخ إقامة بيرم بمرسيليا.

الإمضاء: سائح (اسم مستعار لبيرم).

ـ المحتوى: انتقاء ذكريات تُظهر سعة اطّلاع بيرم على واقع مرسيليـا وتميّزه من جميع الذين كتبوا عنها (أي أنّ مدار النصّ على ما شاهده وسمعه).

ـ اتّحاد أعوان السرد والمحتوى السرديّ واعتماد الذاكرة تربط النصّ بالحكي الحقيقيّ وتدعم صلته بجنس المذكّرات.

ـ المقاصد:

رغبة ذاتيّة: ميل إلى الكتابة عن مرسيليـا بعد مغادرتهـا ـ إثارة فضول القارئ وإمتاعه ـ لفت الانتباه إلى أنّه أقام بتلك المدينة الأروبيّة إقامة السيّـاح الأثرياء ـ إخفاء مظاهر الشقاء وتمجيد الذّات وتقديم شهادة على أنّ المنزلة التي احتلّها في تونس لا تضاهي متعة حياته بفرنسا.

ـ سياق النشأة وظروف التلقّي كيّـفت الخطاب للرفع من منزلة المؤلّف لدى الجمهور التونسيّ وامتصاص لوعة الذين حزنوا على نفيه وتخييب آمال الشامتين به.

الدرس الثامن:

ـ الميثاق الأجناسيّ الصريح: مذكّرات.

ـ الميثاق الأجناسيّ الضمني: يوميّات (تعيين أيّام تدوين الحلقات واتّباع جدول زمنيّ تعاقبيّ).

ـ اختبار الميثاق:

المحتوى السرديّ: تكشف كلّ حلقة من حلقات الكتاب عن انشغال المؤلّف بتدوين نصوص تظهر ما شغله خلال أيّـام التدوين.

ـ تحيل بعض الفصول على ذكريات ماضية، غير أنّ ما عاشه الشابي خلال يوم التدوين هو الذي قدح تلك الذكريات.

ـ النتيجة: انتماء تلك النصوص إلى جنس اليوميّـات الخاصّة.

وممّا يدعم ذلك أنّ اليوميّـات لا تتّسم بسمات شكل أدبيّ مخصوص ولا بمحتوى مضبوط، وإنّما تخضع خضوعا صارما لجدول زمنيّ تعاقبيّ وتحرص على جعل المحتوى السرديّ لكلّ يوميّة متعلّقا بما وقع في الفترة القصيرة التي تفصلها عن الفترة التي تعلّقت بها اليوميّـة السابقة.

ـ تكتّم الشابي ليس من سمات اليوميّـات الخاصّة. غير أنّ ذلك لا يُخرج نصوصه عن حدود جنسها الأدبيّ، نظرا إلى أنّ الشابي دوّنها في طور شهرته الأدبيّة، ممّا جعله يفكّر في القارئ المحتمل، مثلما فعل في رسائله إلى الحليوي.

الدرس التاسع:

ـ العتبـات:

ـ العنوان الرئيسيّ: مذكّرات+العناوين الفرعيّة: إشارات إلى تعلّق كلّ مذكّرة بحياة طه حسين نفسه ـ تاريخ التدوين: منتصف الخمسينات (والأحداث جرت خلال الربع الأوّل من القرن العشرين).

اتّحاد أعوان السرد:

أحال الراوي على الشخصيّة الرئيسيّـة بضمير الغائب ثمّ كشف في ثنايا الفصل السابع عن أنّ طه حسين نفسه هو الشخصيّة التي أحال عليها باستعمال ضمير الغائب (اتّحاد أعوان السرد يجعل الرؤية مصاحبة ويدعم الصلة بالحكي الحقيقيّ الذي تندرج فيه المذكّرات).

المحتوى السرديّ:

مدار النصوص على أفعال طه حسين وأقواله وملامح شخصيّته يدعم نسبة متنه إلى جنس المذكّرات. وممّا يبرّر ذلك أنّ النسق السرديّ لا يخضع للنسق السرديّ الذي يميّز السيرة الذاتيّة، فضلا عن أنّ الأحداث لا تحتفل بمرحلة الطفولة.

ـ هيمنة دافع التبرير على الدوافع المولّدة لتلك المذكّرات.

ـ النتيجـة:

العناصر الأجناسيّة المميّزة للمذكّرات هي التي هيمنت على العناصر الأجناسيّة المميّزة لأجناس أدبيّة أخرى.

الدرس العاشر:

ـ يؤثّر دافع الشهادة في نشأة الترجمة الذاتيّة والمذكّرات، نظرا إلى أنّ الذين توسّلوا بذينك الجنسين الأدبيّين من الأعلام الذين خاضوا معارك مختلفة أشاعت عنهم أقوالا لا ترضيهم دائما. ومن ثمّ حاولوا تقديم شهادة لتبرير مواقفهم والردّ على خصوصهم.

ـ رغم أنّ مذكّرات الشابي تنتمي إلى جنس اليوميّـات، فإنّ العوامل التي قادته إلى تدوينها عندما كان في قمّة الشهرة حملته على تقديم شهادة على واقع مجتمعه وعلى مظاهر القطيعة مع أنصار التقليد وإبراز الجوانب التي تظهر تميّزه من الأدباء الكلاسيكيّين وانخراطه في المذهب الرومنسيّ.

ـ لكنّ تلك الشهادة قامت على الانتقاء وتعرّت من الموضوعيّة، نظرا إلى طغيان الدوافع الذاتيّة عليها وتفكير الشابي في المتلقّي الذي سيطّلع على نصوصه في وقت من الأوقات.

الدرس الحادي عشر:

ـ مذكّرات مرسيليـا:

ـ المضمون : الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة بمرسيليا + سلوك الشرقيّين المقيمين بفرنسا.

ـ الخطّة: لفت نظر القارئ إلى غُنم الكاتب عندما أقام بتلك المدينة الأوروبيّة.

ـ الـدافـع: اعتزاز بالخبرة التي ميّزته من الذين كتبوا عن مرسيليا قبله.

ـ الشكـل: نزعت الكتابة منزع خطاب الرحلة + تفنّن أسلوبيّ + تهكّم + تعليق...

(بكلّ هذا كشفت مذكّرات مرسيليـا عن الأثر الذي تركته تلك الذكريات في نفس بيرم ودلّت على مقاصده).

مذكّرات المنفى:

ـ البدايــة: مشاهد معربة عن الانشراح والتمتّع بالرحلة.

ـ المقصـد: استخفاف بالناقمين وامتصاص لوعة المتعاطفين معه.

ـ بقيّـة الحلقات: لحظات العذاب والفقر والغربة بالمنفى. لكنّ الخطاب يعمد إلى التسويف ومباغتة القارئ بخاتمة ساخرة (المقصد: إظهار تخلّص المؤلّف وقت التدوين من قبضة الرعب التي كدّرت حياته وقت التجربة).

العوامـل: فترة حدّة الصراع مع الخصوم في تونس جعلته يظهر لهم أنّه واجه محنة المنفى بصبر مترجم عن صلابته ورباطة جأشـه.

مذكّراتـي:

ـ نزعت منزع سيرة ذاتيّة موجزة.

ـ الدافـع: رسم مسار حياته لإبراز نضاله وصُموده وتحدّيـه الملك فؤاد وحاشيته الموالية للمستعمر وإدانة من تناسى مواقفه الوطنيّة.

ـ تبرير هجائه النحّاس باشا ومدحه الملك فاروق (لهذا طغت الصبغة الجديّة على تلك المذكّرات وتميّزت بطابع تحليليّ تقريريّ).

* * * * *

وهكذا اختلفت سلاسل مذكّرات بيرم باختلاف دوافع كتابتها وتضافرت ـ مع ذلك ـ على نحت ملامح سيرة حياته.

الدرس الثاني عشر:

المحتوى السردي: حياة طه حسين الماديّة والعقليّة والعاطفيّة (حكي حقيقيّ: اعتماد الذاكرة ـ اتّحاد أعوان السرد، رغم حديثه عن الشخصيّة الرئيسيّة باعتماد ضمير الغائب).

دافع الشهادة ودافع التبرير: تقديم شهادة على حياته خلال طور حاسم. وتلك الشهادة تُبطن إدانة للتعليم التقليديّ في مصر وتنويها بالتعليم العصريّ في فرنسا وتمجيدا للمرأة الفرنسيّة وافتخارا بتميّزه من المبصرين وتبريرا لنقمته على النزعات التقليديّة وميوله السياسيّة.

الأسلـوب: اتّباع أسلوب تحليلي وسم المذكّرة بطابع وثوقيّ هدفه الإقناع بما عرضه من زاوية نظره هو. وهي زاوية نظر ذاتيّة طغت عليها نزعة الافتخار بنفسه والاعتراف المطلق بفضل رفيقته الفرنسيّة عليه.

الدرس الثالث عشر:

ـ مذكّرات الشابي:

غضب الشابي على الذين لم يعترفوا بقيمته الأدبيّة وعلى من لم يقدّروا سلوكه ومواقفه حقّ قدرها، ولكنّه لم يتجرّأ على الردّ عليهم مباشرة. وعندما اختلى بنفسه في غرفته دوّن يوميّـات ببرّر فيها مواقفه وردّ على خصومه وطعن في أقوالهم.

ـ ورغم أنّ مدوّنة الشابي تنتمي إلى جنس اليوميّـات الخاصّة، فإنّها خضعت لدافع التبرير، نظرا إلى أنّ صاحبها دوّنها في طور حاسم من أطوار حياته وفكّر في المتلقّي الذي سيطّلع عليها في يوم من الأيّـام.

ـ مذكّرات بيرم التونسي:

ـ مذكّرات مرسيليـا: وصف معالم مرسيليا ومنتزهاتها وتحليل عادات سكّانها والطعن في سلوك الشرقيّين بها.

ـ بكلّ ذلك برّر المؤلّف ضمنيّـا إقدامه على نقد عادات المصريّين وطبائعهم في أزجاله ونصوصه السرديّة، كما برّر جدارته بالمنزلة التي احتلّها في تونـس عندما ترأّس تحرير جريدة الزمان.

مذكّرات المنفـى:

أشار إلى إفراط أصحاب الصحف المصريّة في ابتزازه عندما كان منفيّـا ليبرّر نقمته عليهم واضطراره إلى الاضطلاع بأعمال شاقّة ويكشف عن معاناته.

مذكّراتـي:

عندما تغافل خُصـوم بيرم عن نضاله ومعاناته وشهّروا بمدحه الملك فاروق وهجائه النحّاس باشا، فإنّه صوّر مسيرة حياته وأظهر غيرته على وطنه وسخر من خصومه ليبرّر جميع المواقف التي اتّخذهـا في حياته تبريرا يُطلع الناس على حقيقـة شخصيّته.

مذكّرات طـه حسين:

ـ المعارك التي خاضها طه حسين قد أفضت إلى اتّهامه والطعن في أفكـاره وعقيدته. ولهذا أخضع مذكّراته لمنهج علميّ صارم طبع شهادته بطابع موضوعيّ وبرّر مواقفه تبريرا منطقيّا (تبرير تهجّمه على شيوخ الأزهر ـ إعجابه بالمرأة الفرنسيّة ـ انتماءاته السياسيّة...)

* * * * *

تشترك تلك المذكّرات في الخضوع لدافع التبرير، نظرا إلى حرص مؤلّفيها على إبراز العوامل التي تحكّمت فيهم أو العوامل التي يزعمون أنّها تحكّمت فيهم لحمل الناس على الحكم عليهم حكما يرضون عنه.

فهرس المحتويات:

ـ التمهيـد 02
ـ الأهداف العامّة للوحدة 02
ـ محتوى الوحدة 02
ـ روزنامة الدروس 03
ـ المقاربة البيداغوجيّة 04
ـ العمل والروزنامة البيداغوجيّة 04
ـ ملخّص الدروس وأهدافها05
ـ الدروس:
القسم الأوّل: الدرس1+الدرس2 10-22
القسم الثاني: الدروس من3 إلى 5 23-44
القسم الثالث: الدروس من 6 إلى 9 45-68
القسم الرابع: الدروس من 10 إلى 13 69-90
ـ الملاحــق 91
ـ المصادر والمراجع 99
ـ التقويم الذاتي (جميع الدروس) 104
ـ مشروع إصلاح التقويم الذاتي (جميع الدروس) 124
ـ فهرس المحتويـات 134